الرّثاء في الشّعر الجاهليّ

تمهيد في المصطَلَح:

إنّ النّظرَ في لغة العَرَبِ يدلُّ على أنّهم استعملوا أربعة ألفاظ رئيسيّة للدّلالة على موقف الحيّ من الميت، وهي: الرّثاء، والنّدْب، والتّأبين، والتّعزِّي أو العَزَاء، سواءٌ أكانَ ذلكَ شعرًا أم نثرًا؛ فقد جاءَ في كتب اللّغة:

أ - **رثى فلانٌ فلانًا، يرثيه، رَثْيًا ورِثاءً ومَرْثاةً ومَرْثِيَةً، ورثّاهُ:** إذا بكاه بعدَ مَوْتِه، وإذا مَدَحَهُ بعدَ موتِهِ وبكاه أيضًا، وإذا رَقَّ لَهُ، لأنَّ الميت تخشع له القلوب وتَرِقّ له النّفوس؛ ويُقال أيضًا: **رثأْتُهُ.**

ب - **وندَبَه، نَدْبًا:** إذا بكى عليه وعدَّدَ مَحاسِنَه، وهُوَ مِنَ النَّدْبِ للْجِرَاحِ، لأنَّه احتراقٌ ولَذْعٌ مِنَ الحُزْنِ.

ج - **وأَبَّنَهُ، تأبينًا:** إذا ذكَرَهُ بعدَ موتِهِ بخير، وإذا مَدَحَهُ بعدَ موتِهِ وبكاه؛ وأصلُ التّأبينِ في اللّغة اقتفاءُ الأثَر ومُراقَبَةُ الشَّيْءِ، وقِيل لمادحِ الميتِ (مُؤبِّنٌ) لاتِّباعِهِ آثارَ فَعَالِهِ وصنائِعِه؛ ويُقال أيضًا: **أَبَّلَهُ تَأبيلًا.**

د – **وتعزَّى عنه**: إذا تَصبَّرَ وتَسَلَّى عنه بعد مُصيبتِهِ به، وقد عزَّيتُهُ عنه: إذا سلّيتَهُ ودعوتَهُ إلى الصَّبْر؛ والعَزَاءُ: هو الصَّبْرُ والسُّلْوانُ عَنِ الـميت؛ وقريبٌ مِنَ التَّعَزِّي (**التَّأَسِّي**)، من قولِـهِم: تأسَّى فلانٌ.

والنّظر في هذه الألفاظ وما تدلّ عليه يُبيّن أنَّ (الرّثاء) هو اللَّفظ الْـجامِعُ لها، فإنّ البُكاءَ على الـميتِ هو أوّلُ مظاهِرَ مَوْقِفِ الحيّ منه، ويَتْبَعُهُ تعديدُ محاسنِهِ وذِكْرُهُ بالخَيْر، ثُمَّ إظهارُ الصَّبْرِ والسُّلوان؛ ومِنْ ثَمّ يُطلَقُ (الرِّثاء) على جميع أَضْرُبِ الشِّعْرِ الَّذي يُقال في الـميت، ويُخَصَّص البكاء عليه مَعَ تعديد محاسنِه بتسميةِ (النَّدْب)، ويُخَصَّصُ ذِكْرُ الـميت بالخير إِنْ لَمْ يُرافقْهُ البكاء باسم (التّأبين)، ويُخَصَّصُ التَّصَبُّرُ والتَّسَلِّي والتَّأَسِّي بالآخرينَ باسم (التّعزِّي) أو العَزَاء.

أوَّلًا: صِلَةُ الرِّثاء بأغراض الشِّعر الأُخرى:

ما سَبَقَ مِنْ الألفاظ ومعانيها يدلُّ على **صلةٍ وَثيقةٍ بين الرِّثاءِ والـمدْح**، مِنْ جِهَةِ تَعْدادِ الـمحاسِنِ وتتبُّعِ آثارِ الفَعَالِ والصّنائِعِ؛ ولهذا يقولُ قُدامَةُ بنُ جعفر في كتابه (نَقْد الشّعر): «**ليس بين المَرْثِيَةِ والمِدْحَةِ فَصْلٌ إلّا أَنْ يُذْكَرَ في اللّفظ ما يَدُلُّ على أَنَّهُ هالكٌ، مثلُ (كانَ)، و(تَوَلَّى) و(قَضى**

نَحْبَهُ) وما أَشْبَهَ ذلكَ؛ وهذا ليسَ يَزِيدُ في المعنى ولا يَنْقُصُ منه، لأنَّ تأبينَ الميتِ إنَّما هُوَ بمِثْلِ ما كانَ يُمدَحُ بِهِ في حياتِهِ؛ وقد يُفْعَلُ في التّأبين شَيْءٌ ينفصِلُ بِهِ لفظُهُ عن لفظِ المدح بغيرِ (كان) وما جرى مَجْراها، وهو أن يكونَ الحيُّ وُصِفَ مَثَلًا بالجودِ، فلا يُقال (كانَ جوادًا) ولكن بأنْ يُقالَ: (ذهبَ الْـجُود) أو (فَمَنْ لِلْجُودِ بَعْدَه) ومثل: (تَوَلَّى الْـجُودُ) وما أَشْبَهَ هذه الأشياء»؛ وهذه الصّلة الّتي يشير إليها النّقّاد إنّما هي في الـمعاني الـمذكورة، لا مِنْ جِهَةِ الدّوافِعِ والشُّعُورِ، فلا ريبَ في أنَّ الإعجاب بالـممدوح أو الطَّمَع بما عنده أو الرَّغبَةِ في خَيْرِه غيرُ الوفاءِ للميتِ والحزنِ والْـجَزَعِ والتّأسُّف عليه.

ولا تقتصرُ صِلَةُ الرِّثاءِ بأغراضِ الشِّعر على الـمدح، فإنَّ **صلتَهُ بالوَصفِ** واضحةٌ في تعديدِ الـمحاسِنِ ووَصْفِ الـميتِ في حياتِهِ ومَوْتِهِ وفي أحوالِهِ الأُخْرى، وكذلك **صِلَتُه بالحماسة والفخر والهجاء والحكمة،** فإنَّ كثيرًا مِن الـمَرَاثي قِيلَتْ على أَثَرِ الحروب والوقائع بين القبائل، فكانتِ الحماسةُ تُخالِطُ الرِّثاءَ بِمعانٍ تدعو إلى الأَخْذِ بالثَّأر وتُعَيِّرُ القاعدين عن طلَبِهِ أو الرَّاغبين في الـمالِ والدِّيَةِ عَنِ الثأر والقَوَد، وما يكون مِن تهديدِ الأعداءِ والسَّخَطِ عليهم وهجائِهِم، وتتخلَّلُ ذلكَ معانٍ كثيرةٌ مِنَ الحكمة والتَّأَسِّي

والاعتبارِ بِمَنْ مَضى أو هلَكَ مِنَ الإنسِ وغيرِهم؛ ولهذا يقولُ ابنُ رَشيق في كتابه (العمدة): «**ومِنْ عادةِ القُدَماءِ أَنْ يَضْرِبُوا الأمثالَ في المراثي بالملوكِ الأَعِزَّةِ والأُمَمِ السّالفةِ، والوُعُولِ المُمْتَنِعَةِ في قُلَلِ الْجِبال، والأُسودِ الخادِرَةِ في الغياض، وبِحُمُرِ الوَحْشِ المُتَصَرِّفةِ بينَ القِفار، والنُّسورِ والعِقْبانِ والحيّاتِ، لِبَأْسِها وطُولِ أعمارِها**»؛ بَلْ إنّ عددًا مِن المَرَاثي ابتدأَها الشُّعراءُ بضُروبٍ مِنَ الحكمة كالَّذي في مراثي لَبِيدِ بنِ رَبيعةَ لأخيهِ ولِمَن مَضَى مِن آبائِهِ وأبناءِ قبيلتِهِ وللنُّعمانِ بنِ المُنْذِر مَلِكِ الحِيرة، وهذا راجِعٌ إلى طبائِعِ الشُّعراءِ ومواقِفِهم مِنَ الحياةِ، فإنَّ النّاظِرَ في شعرِ لَبيدٍ وحياتِهِ يجدُ أنَّه كان رجلًا مُتَأَلِّهًا في الْجاهليّةِ مُتَأَمِّلًا في الحياةِ ووُجوهِها.

ثانِيًا: دوافع الرّثاء:

أيًّا كانت الصِّلَة بين الرِّثاءِ وغَيْرِه مِن أغراض الشّعر في المعاني فإنَّ الدَّافِعَ إلَيْهِ غَيْرُ الدَّافِعِ إلى ما سِواه، ولا يقتصر الرّثاء على دافعٍ واحدٍ، وإنْ كان الأصلُ فيه هو الحزن على الميت الَّذي قطَعَ الموتُ صِلَتَهُ بالحيّ، فإنّ مِنَ الشّعراء **مَنْ يرثي قريبًا أو صاحبًا حميمًا**، فيكونُ الجَزَعُ والحزنُ والتفجُّعُ

أكبَرَ دوافعِهِ، ومنهم **مَنْ يرثي فارسًا مِن الفُرْسانِ** فيكونُ الغَضَبُ والشُّعورُ بفَقْدِ جانبٍ مِنَ القوَّةِ وبالنَّيْلِ مِنْ عِزَّةِ القبيلةِ وامتناعها دافعًا آخَر، ومنهم **مَنْ يرثي سيِّدًا أو شريفًا** ذا فضلٍ فيكونُ الإعجابُ أو الإكبارُ أو الوفاءُ وراءَ رثائِهِ، ومنهم **مَنْ يرثي نفسَهُ** فيكونُ الشُّعور بالضّعفِ أمامَ الـموتِ والانكسارُ له والتَّعَلُّقُ بالحياة وبالأهل والولد دافعَهُ إليه؛ فإذا كانَ الـموتُ أمرًا جامعًا مَقْضِيًّا على كلِّ نفسٍ فإنَّ دوافِعَ رثائها لا يجمعُها جامعٌ واحدٌ، فلكلِّ قصيدةٍ مِنَ الـمراثي دافعُها أو دوافعُها الخاصّةُ الـمتعلِّقة بالـمرثيّ وصلةِ الرّاثي به، وطريقةِ مَوْتِهِ، وبالرَّاثي نفسِهِ ونَظْرَتِهِ إلى الحياة والـموت، ومَوْقِفِهِ منهما ومِنَ الـمرثيّ ومِن أهلِه؛ فليسَ رثاءُ الأخِ كرثاءِ الصّديق، ولا رثاءُ الأبِ كرثاءِ الزَّوْجِ، ولا رثاءُ القتيل كرثاءِ مَنْ مات حَتْفَ أنفِهِ، ولا رثاء الصّحيح كرثاءِ الـمريض، ولا رثاء الـمُسِنِّ كرثاء الشّابّ، ولا رثاء الرَّجُلِ كرثاءِ الـمرأة، ولا رثاءُ الشّاعِرِ الفارسِ كرثاء الشّاعِرِ غيرِ الفارس، ولا رثاء الـمُتَأَلِّه كرثاء غير الـمتألِّه؛ وهكذا يكونُ الاختلافُ كبيرًا لا يجمعُهُ دافع واحد ولا شعورٌ واحد، وإن كانَ الـموتُ واحدًا.

ثالثًا: مشهوراتُ الـمَراثي وأصحابُها:

الـمَراثي كثيرةٌ؛ إذ لا يَكادُ شاعرٌ فَقَدَ حميمًا أو قريبًا إلّا ولَهُ فيه شعرٌ، سواءٌ أَوَصلَ إلينا ذلكَ أَمْ لم يصل؛ ولكنَّ ما وصلَ إلينا مِن شعر الرِّثاء الْـجاهليِّ ليسَ بالقليل، ولهذا خصّص عددٌ من العلماء كُتُبًا كاملَةً للمَراثي، كالـمدائنيّ في كتابه (الـمَراثي) والـمُبَرِّد في كتابه (التّعازي والـمَرَاثي) ومحمّد بن العبّاس اليزيديّ في كتابه (الـمراثي)، وجَعَلَ النُّقَّادُ وأصحابُ الاختياراتِ الشِّعريّةِ مِنَ الرِّثاء بابًا قائمًا بنفسِهِ، وحينَ صَنَّفَ محمّدُ بنُ سَلَّامٍ الْـجُمَحِيُّ كتابَهُ (طبقات فُحول الشُّعراء) جعلَ الجاهليّينَ عَشْرَ طبقاتٍ، ولكنَّهُ أَفْرَدَ أصحابَ الـمَرَاثي بطبَقةٍ خاصَّةٍ غيرِ هذه الطّبقاتِ العَشْرِ، لأنَّه وَجَدَ عَدَدًا مِنَ الشُّعراءِ تَمَيَّزوا في الرِّثاء عَلَى قلّةِ مَنْ تَميّزوا فيه، وفي أشعار هؤلاء صِدْقُ الحسرةِ واللَّوْعَةِ والبُعْدُ عن التَّكَلُّف مَعَ جَوْدَةِ الشِّعْرِ وتعَلُّقِهِ بحقيقةٍ كُبرى مِن حقائقِ الوجودِ قلَّ الـمُبَرِّزونَ فيها مِنَ الشّعراءِ، فلعلَّهُ لذلك أفرَدهم في طبقةٍ، وإنْ كانَ في الشّعراء الآخَرِينَ مِمَّنْ لَـمْ يجعَلْهُم في هذه الطَّبَقةِ مَنْ تميّز في الرِّثاء، كأَوْسِ بنِ حَجَرٍ ولَبِيدِ بنِ رَبيعةَ والـمُهَلْهِل.

وشعراءُ طبَقَةِ أصحاب المَراثي عندَ ابنِ سلّام هم أربعةُ شُعراء:

- مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرَةَ اليَرْبُوعيّ التّميميّ، رثى أخاه مالكًا.

-والخنساءُ بنتُ عَمْرِو بنِ الحارثِ بنِ الشَّريدِ السُّلَميَّة، رثَتْ أَخَوَيْها صَخْرًا ومُعاوية.

- وأعشى باهِلَةَ: عامرُ بنُ الحارثِ بنِ رِياحٍ، رثى الـمُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهليَّ.

- وكَعْبُ بنُ سَعْدٍ الغَنَويّ، رثى أَخاه أبا الـمِغْوار.

ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا مِن أخبارهم، وأَنْشَدَ بعضًا مِنْ قصائدهم الـمشهورة، فقال عن متمِّم: «وبكى متمِّمٌ مالكًا فأكثرَ وأجادَ، والـمقدَّمَةُ مِنْهُنَّ [يعني من قصائده] قولُه:

لَعَمْـرِي، ومـا دَهْـرِي بِتَـأْبِينِ هالِـكٍ ولا جَـزَعٍ مِمَّـا أَصـابَ وأَوْجَعَـا »

وقال عن الخنساء: «وبكَتِ الخنساءُ أَخَوَيْها صَخْرًا ومُعاويةَ، ... فقالت في صخرٍ كلِمَتَها الّتي تقولُ فيها:

وإنَّ صَـــخْرًا لَتَـــأْتَمُّ الهُـــداةُ بِـــهِ [كأَنَّـــهُ عَلَـــمٌ في رأْسِـــهِ نـــارُ]

وقالت في مُعاويةَ:

أَلا مـــا لِعَيْنِـــكِ أَمْ مَـــا لَهَـــا لَقَـــدْ أَخْضَـــلَ الـــدَّمْعُ سِرْبالَهَـــا

وقالت في صَخْرٍ الكلِمةَ الأُخرى:

أَمِـنْ حَـدَثِ الأيّـامِ عَيْنُـكِ تَهْمُـلُ وَتَبْكِي عَلى صَخْرٍ، وفي الدَّهرِ مَذْهَلُ»

وقال عن أَعْشى باهلةَ: «رثى الـمُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهليَّ قَتِيلَ بَنِي الحارث، فقال في كلِمَتِه:

لا يَـأْمَنُ النَّـاسُ مُمْسَـاهُ ومُصْـبَحَهُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وإنْ لَـمْ يَغْزُ يُنْتَظَرُ»

وأنشَدَ منها أبياتًا.

وقال عن كعبِ بنِ سعدٍ الغَنَوِيِّ: «رثى أخاهُ أَبا الـمِغْوارِ بكَلِمَةٍ قال فيها:

فَخَبَّرْتُمَـانِي أَنَّـما المَـوْتُ بِـالقُرَى فَكَيْـفَ وَهَـذِي رَوْضَـةٌ وكَثِيـبُ»

وأنشدَ منها أبياتًا.

وحينَ تحدَّثَ عن لَبِيدِ بنِ ربيعةَ -وقد وضعَهُ في الطّبَقةِ الثّالثةِ من شعراءِ الْـجاهليّة- نَبَّهَ على تميُّزِه في رثاءِ قَوْمِه وأَخيهِ أَرْبَدَ، وممّا قاله فيه: «**وكان في الجاهليّةِ خَيْرَ شاعرٍ لِقَوْمِهِ، يمدحُهم ويَرْثيهم ويُعَدِّد أيّامَهُم ووقائعَهم وفُرسانَهم**».

وعدّد المبرِّدُ المراثيَ المشهورَة، فقال:

«مَراثي الجاهليّة المشهورةُ المُسْتَحْسَنةُ المُستَجادةُ المقدَّمةُ معلومةٌ موسومة، منها قصيدةُ مُتمِّم ابنِ نُوَيْرَةَ في أخيه مالِكٍ، على أنّ سائرَ شعره غيرُ مَذموم، وإنْ تقدَّمَتْهُنَّ العَيْنِيَّةُ الّتي أوّلُها:

لَعَمْرِي، وما دَهْرِي بِتَأْبِينِ هالِكٍ وَلا جَـزَعٍ مِمَّـا أَصـابَ فأَوْجَعَـا

ومنها قصيدةُ دُرَيْدٍ [يَعْنِي ابنَ الصِّمَّةِ الْـجُشَمِيّ] في أَخيهِ عَبْدِ اللهِ الّتي أَوّلُها:

أَرَثَّ جَدِيـدُ الحَبْـلِ مِـنْ أُمِّ مَعْبَـدِ بِعاقِبَـةٍ، وأَخْلَفَـتْ كُـلَّ مَوْعِـدِ

ومنها قصيدةُ كعبِ بنِ سعدٍ الغَنَوِيِّ يَرثي أخاه، وهي الّتي أوّلُها:

تَقُولُ سُلَيْمَى: ما لِجِسْمِكَ شاحِبًا كأَنَّكَ يَحْمِيكَ الشَّرابَ طَبِيبُ

ومنها قصيدةُ أَعْشى باهِلَةَ أَبِي قُحافَةَ، وهي الّتي أوّلُها:

إنِّي أَتَتْنِي لِسانٌ لا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ».

ثمَّ أَشارَ إلى **مَراثي الخنساءِ** في أَخَوَيْهَا، **ومَراثي أَوْسِ بنِ حَجَرٍ التَّميميّ** في فَضالةَ بنِ كَلَدةَ الأسديّ، **ومَراثي لَبِيدٍ** في أخيه أَرْبَدَ، **ومَراثي مُهَلْهِلٍ** في أَخيهِ كُلَيْبٍ.

وقال عن قصيدةِ دُرَيْدٍ بعد ذلك: «**وكان الأصمعيُّ يقدِّمُها جدًّا، وهِيَ أَهْلُ ذاكَ**»، وبالرُّجُوع إلى (الأصمعيّات) يتبيَّنُ أنّ الأصمعيَّ اختارَ قصيدَةَ دُرَيْدٍ وقصيدةَ أَعْشى باهلةَ وقصيدةَ كعب بن سعد وبعض مراثي المهلهل.

فهؤلاءِ أشهرُ شعراء المراثي وأشهر قصائدهم، ومعظم هذه القصائد طِوالٌ، فيها الرّثاء بأشكالِه المختلفةِ مِن بكاءٍ ونَدْبٍ يُعَدِّدُ فيه الشّاعرُ مَحاسِنَ الميت ويَبكيه، وتَعَزٍّ تُرافِقُه الحكمةُ والتَّأَسِّي، وفي بعض

الـمقطَّعاتِ تأبينٌ يكتفي فيه الشّاعرُ بذكر محاسنِ الـميت وتَعدادها؛ ويأتي في سياق ذلك معانٍ عدّة تتكرّر في القصائد والـمقطعات.

رابِعًا: أمثلةٌ من مراثي الْـجاهليّين، وألفاظها الغريبة، ومعانيها:

الـمثال الأوّل:

لِلْخَنْساءِ، وهي تُماضِرُ بنت عمرِو بنِ الحارث بن الشَّريد، من بني سُلَيْمٍ، وهي من أشهر شواعر العرب، عاشت أكثر عمرها في الْـجاهليّة، وأدركت الإسلامَ فأسلمَتْ، وأكثرُ شعرِها في رثاء أَخَوَيْها صخرٍ ومُعاوية، وكانا قد قُتِلا في الْـجاهليّة، وكانت تقول الأبياتَ اليَسيرة، فلمّا أُصيبَتْ بأَخِيها صَخْرٍ جَدَّتْ وأَجادَت، وكان معاويةُ أخاها لأبيها وأُمِّها، وصخرٌ كان أخاها لأبيها، وكانت به أَمَسَّ لِفَضلِه ولِشِدَّةِ بِرِّه بها، فقد شاطَرَها مالَهُ مَرَّات؛ وقُتِلَ معاويةُ أوّلًا فثَأَرَ بِهِ صَخْرٌ، ثُمّ قتلَهُ بنو أسد؛ فرثَتْهُ بقصائدَ كثيرة، ومنها قولُـها:

١-قَــذًى بِعَيْنِـكِ أَمْ بـالْعَيْنِ عُـوَّارُ؟ أَمْ أَوْحَشَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ؟
٢-تَبْكِي لِصَخْرٍ هِيَ العَبْرَى وقَدْ ثَكِلَتْ ودُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أَسْتارُ
٣-لا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ في صَرْفِهَا غِيَرٌ والدَّهْرُ في صَرْفِهِ حَوْلٌ وأَطْوارُ

٤-يـا صَـخْرُ! وَرّادَ مـاءٍ قَـدْ تَنـاذَرَهُ ... أَهْـلُ المِـياهِ، وَمَـا في وِرْدِهِ عَـارُ

٥-مَـشْيَ السَّبَنْـتَى إِلى هَيْجـاءَ مُعْضِـلَةٍ ... لَـهُ سِـلاحَانِ أَنْيـابٌ وأَظْفـارُ

٦-عَبْـلُ الـذِّراعَيْنِ، قَـدْ تُخْشَـى بَـوادِرُهُ ... عِنْـدَ الوَقِيعَـةِ لِلأَقْـرَانِ هَصَّـارُ

٧-فَـمَا عَجُـولٌ عَـلَى بَـوٍّ تُطِيـفُ بِـهِ ... لَـهَا حَنِينَـانِ: إِعْـلانٌ وَإِسْرارُ

٨-تَرْتَـعُ مـا غَفَلَـتْ حَـتَّى إِذا ادَّكَـرَتْ ... فَـإِنَّما هِـي إِقْبـالٌ وإِدْبـارُ

٩-يَوْمًـا بِأَوْجَـدَ مِنِّـي حِـينَ فـارَقَنِي ... صَخْـرٌ، ولِلـدَّهْرِ إِحْـلاءٌ وإِمْـرارُ

١٠-وإِنَّ صَخْـرًا لَوَالِينـا وسَـيِّدُنا ... وإِنَّ صَـخْرًا إذا نَشْـتُو لَنَحَّـارُ

١١-وإِنَّ صَـخْرًا لَـتَأْتَمُّ الهُـداةُ بِـهِ ... كأَنَّـهُ عَلَـمٌ في رَأْسِـهِ نـارُ

١٢-طَلْـقُ اليَـدَيْنِ بِفِعْـلِ الخَـيْرِ ذُو فَجَـرٍ ... ضَـخْمُ الدَّسِـيعةِ في الـلَّأْواءِ صَـبَّارُ

١٣-مِثْـلُ الرُّدَيْنِـيِّ، لَـمْ تَنْفَـدْ شَـبِيبَتُهُ ... كأَنَّـهُ تَحْـتَ طَـيِّ الـبُرْدِ أُسْـوارُ

١٤-لِيَبْكِـهِ مُقْـتِرٌ أَفْنَـى حَلُوبَتَـهُ ... دَهْـرٌ وحالَفَـهُ بُـؤْسٌ وإِقْتـارُ

١٥-ورُفْقَـةٌ حـارَ هـادِيهِمْ بِمَهْلَكَـةٍ ... كـأَنَّ ظُلْمَتَهَـا في الطُّخْـيَةِ القَـارُ

١٦-لَـمْ تَـرَهُ جـارَةٌ يَـمْشي بِسـاحَتِها ... لِرِيـبَةٍ حِـينَ يُخْـلِي بَيْتَـهُ الْـجَارُ

الألفاظ الغريبة:

١- العُوَّار: أشدُّ الرّمَدِ وأَغْلَبُهُ.

٣- صُروف الدَّهْرِ: حِدْثانُهُ.

٤- تَعْني بالـماءِ: الـموتَ.

٥- السَّبَنْتَى: الْـجَرِيءُ الصَّدْرِ، وهو من صفاتِ النَّمِر.

٦- العَبْل: الـمُمْتَلئ. والبَوادِرُ: ما يَعْجَلُ بِهِ ويَبْدُرُ منه. والأقران: جَمْعُ القِرْن، وهُوَ الـمُماثِلُ لكَ في الشّدّةِ والبأْس. والهصّار: الَّذي يَقْهَرُ عدوَّه.

٧- العَجُول: الثَّكْلَى. والبَوُّ: ولدُ النّاقةِ يُنْحَرُ ويُحْشَى تِبْنًا ويُقَرَّبُ لِلنّاقةِ فتَرْأَمُهُ لِتَدِرّ.

٨- تَرتَعُ: تَرْعى. وادّكرَت: تذكَّرَتْ.

٩- أَوْجَدُ: أشدُّ وَجْدًا، و(الوَجْدُ) مِنْ معانيهِ: شدّةُ الحُزْن؛ ويُروَى: بأَوْجَعَ.

١١- تأتمّ: تقتدي. والعَلَمُ: الْـجَبَلُ.

١٢- ذو فَجَرٍ: صُحِّفَ في (التعازي والـمراثي) إلى (ذو فَخَرٍ)، والصَّواب (ذو فَجَرٍ) أي: ذو عطاءٍ وكَرَمٍ وجُودٍ ومعروف؛

من التّفَجُّر في الخير، وهو الانبعاثُ فيه؛ ومثلُه قول مطرودٍ الخزاعيّ:

يبكينَ شَخصًا طويلَ الباعِ ذا فَجَرٍ آبـي الـهَضِيـمَةِ فـرّاجَ الْـجَلِيـلاتِ

وضخم الدَّسيعة: كبيرُ الْـجَفْنَةِ، وهي القَصْعَة، كِنايةٌ عنِ الكَرَم. واللّأواء: الشّدّة.

١٣- الرُّدَيْنِيّ: الرُّمْح، منسوبٌ إلى امرأةٍ اسمُها (رُدَيْنَة) كانت تُقَوِّمُ الرّماحَ.

١٤- الـمُقْتِر: الفقير. والحَلوبَةُ: الدّابَّةُ ذاتُ الحليب.

١٥- الـمَهْلَكَةُ: الأرض الّتي يَهْلِكُ مَنْ يَضِلُّ فيها. والطُّخْيَة: الغَيْمُ الرَّقيقُ الَّذي يُوارِي النُّجومَ فيتَحَيَّرُ الهادي، واللَّيْلَةُ الـمُظْلِمَة.

الـمثالُ الثّاني:

لِجَليلةَ بنت مُرَّةَ أو أُخْتِها ماويَّةَ بنت مُرَّة في رثاء زوجِها، وكان كُلَيْب تزوّجَهما؛ قال الـمبرّد: «فقالت ماويَّةُ بنتُ مرّة امرأةُ كُلَيْب، تشتكي

ما بها مِن قتلِ أخيها زوجَها، وهي قصيدةٌ محيطةٌ بالمعنى المقصود، جيدةُ الكلامِ بوَفْرَةِ التّشَكِّي»:

١-يا بْنَةَ الأَقْوامِ إِنْ شِئْتِ فَلا ... تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلي

٢-فَإِذا أَنْتِ تَبَيَّنْتِ الّتِي ... عِنْدَها اللَّوْمُ فلُومِي وَاعْذِلِي

٣-إِنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى ... شَفَقٍ مِنْها عَلَيْهِ فَافْعَلي

٤-قَتْلُ جَسّاسٍ -عَلى وَجْدِي بِهِ- ... قاطِعٌ ظَهْرِي ومُفْنٍ أَجَلي

٥-لَوْ بِعَيْنِي فُدِيَتْ عَيْنٌ سِوَى ... أُخْتِها فَانْفَقَأَتْ لَمْ أَحْفِلِ

٦-تَحْمِلُ العَيْنُ قَذَى العَيْنِ كَما ... تَحْمِلُ الأُمُّ قَذَى مَا تَفْتَلِي

٧-يا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ ... سَقْفَ بَيْتَيَّ جَميعًا مِنْ عَلِ

٨-هَدَمْ البَيْتَ الَّذي اسْتَحْدَثْتُهُ ... وَبَدَا في هَدْمِ بَيْتِي الأَوَّلِ

٩-ورَماني قَتْلُهُ مِنْ كَثَبٍ ... رِمْيَةَ المُصْمِي بِهِ المُسْتَأْصِلِ

١٠-يا نِسائِي دُونَكُنَّ اليَوْمَ قَدْ ... خَصَّني الدَّهْرُ بِرُزْءٍ مُعْضِلِ

١١-خَصَّنِي قَتْلُ كُلَيْبٍ بِلَظًى ... مِنْ وَرائِي وَلَظًى مُسْتَقْبِلِي

١٢-لَيْسَ مَنْ يَبْكِي لِيَوْمَيْنِ كَمَنْ ... إِنَّما يَبْكِي لِيَوْمٍ يَنْجَلِي

١٣-دَرَكُ الثَّائِرِ شَافِيهِ وَفِي ... دَرَكِي ثَأْرِيَ ثُكْلُ المُثْكِلِ

١٤-لَيْتَهُ كانَ دَمي فاحْتَلَبُوا ... دَرَكًا مِنْهُ دَمًا مِنْ أَكْحَلِي

١٥-جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسّاسٍ فَيا ... حَسْرَتا عَمّا انْجَلَتْ أَوْ تَنْجَلِي

١٦-إِنَّـــــــنِي قاتِلَـــــــةٌ مَقْتُـــــــولَةٌ وَلَـعَـــلَّ اللهَ أَنْ يَـــرْتَـــاحَ لِـــي

الألفاظ الغريبة:

٤- وَجَدَ بِهِ، وَجْدًا: أحبّه.

٥- لم أَحْفِل: لم أُبالِ.

٦- القذى: ما يخرج من النّاقة والشّاة بعد الولادة؛ وقذى العَيْن: ما يقعُ فيها فيؤذيها. وما تَفْتَلِي: ما تَفْطِمُ، تعني الولدَ.

٧- قوّضَه: هدَمَه.

٩- من كَثَب: مِنْ قُرْبٍ وتَمَكُّنٍ. والـمُصمِي: الصائد الَّـذي يصيب الصَّيْدَ فيقتُلُه مكانَه. والهاء في (به) عائدٌ على (قَتْله)؛ جعلت قتلَ زَوْجِها كالسَّهمِ الَّذي يصيب الرَّمِيّةَ فيقتُلها مكانَها.

١٠- قولها: (دونكنَّ) متعلِّقٌ بالفعل (خصَّني). والرُّزْءُ: الـمُصيبة. والـمُعْضِل: الشّديد الـمُستَغلِق.

١١- اللَّظى: النّار، أو لَهَبُها الخالص.

١٢- قولها: (يبكي ليومَيْنِ) لا تَعْني يومَيْنِ اثْنَيْنِ، بل يومًا بعدَ يومٍ، كقولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كَرَّةً بعدَ كَرَّةٍ. وتَنْجَلِي: تنكشف.

١٣- الدَّرَك: اللَّحاق، أي لحاقه بثأره. والثُّكْلُ: فقدان الحبيب والولَد. وأثْكَلَها ولدَها: أفْقَدَها إيّاه، فهو مُثْكِلٌ.

١٤- الهاء في قولها: (لَيْتَهُ) عائدٌ على (دَرَك الثّائر) في البيت السّابق. واحتَلَبَ الضَّرْع: استخرج ما فيه من اللَّبَن؛ واستعارته للدَّمِ يُستَخْرَج من الجسم. والأَكْحَل: عِرْقٌ في وَسَطِ الذِّراع.

١٥- جَلَّ: عَظُم. والفاعل في قولها (انجَلَتْ) مستَتِرٌ عائدٌ على (المصيبة) أو ما في معناها، وإن لم يسبق لها ذِكْر، فإنّ السِّياقَ والمعنى دالّان عليها.

١٦- لعلّ اللهَ أنْ يرتاحَ لي: أنْ يُنْقِذَني من البليّة؛ والرَّوحُ: الاستراحة من غمّ القلب.

المثالُ الثّالث:

لأَوسِ بن حَجَرٍ التَّمِيميّ في رثاء سيّدٍ هو فَضَالَةُ بن كَلَدَةَ الأسديّ:

١ - أَيَّـــتُها النَّفْـــسُ أَجْمِـــلي جَـــزَعَا   إنَّ الَّـــذي تَحْـــذَرِينَ قَـــدْ وَقَعَـــا

٢ - إنَّ الَّـــذي جَمَّـــعَ السَّـــماحَةَ والنْـــ   ـــنَجْدَةَ والـــحَزْمَ والقُـــوى جُمَعَـــا

٣ - الأَلْـــمَعِيَّ الَّـــذي يَـــظُنُّ لَـــكَ الظْـــ   ـــظَنَّ كـــأَنْ قَـــدْ رأى وقَـــدْ سَـــمِعَا

٤ - والـــمُخْلِفَ الـــمُتْلِفَ الـــمُـــرَزَّأَ لَمْ   يُمْـــتَعْ بِضَـــعْفٍ ولَمْ يَمُـــتْ طَبَعَـــا

٥ - والحافِظَ النَّـــاسَ في الْـــجُدُوبِ إِذا   لَـــمْ يُـــرْسِلُوا تَحْـــتَ عائِـــذٍ رُبَعَـــا

٦ - وعَـــزَّتِ الشَّـــمْأَلُ الرِّيـــاحَ وقَـــدْ   أَمْســـى ضَجِـــيعُ الفَتـــاةِ مُلْتَـــفِعَا

٧ - وشُـــبِّهَ الـــهَيْدَبُ العَبَـــامُ مِـــنَ الْـــ   أَقْـــوامِ سَـــقْبًا مُجَلَّـــلًا فَرَعَـــا

٨ - وكانَـــتِ الكاعِـــبُ الـــمُمَنَّعَةُ الْـــ   ـــحَسْـــناءُ في زادِ أَهْلِهـــا سَـــبُعَا

٩ - أَوْدَى فَـــلا تَنْفَـــعُ الإِشـــاحَةُ في   شَيْءٍ لِـــمَنْ قَـــدْ يُحـــاوِلُ البِـــدَعَا

١٠ - لِيَبْكِكَ الشَّـــرْبُ والـــمُـــدامَةُ والْـــ   ـــفِتْيَـــانُ طُـــرًّا وطـــامِعٌ طَمِعَـــا

١١ - وذاتُ هِـــدْمٍ بَـــالٍ نَواشِرُهَـــا   تُصْـــمِتُ بالـــمَـــاءِ تَـــوْلَبًا جَـــدِعَا

١٢ - والـــحَيُّ إِذْ حاذَرُوا الصَّباحَ بِأَقْـــ   ـــوامٍ وجاشَـــتْ نُفُوسُـــهُمْ جَزَعَـــا

الألفاظ الغريبة:

١- الجزَع: نَقيضُ الصَّبر، وأَشدُّ الحُزن الَّذي يَقْطَعُ الإنسان عمّا هو بِصَدَدِه من العمل. و(أَجْمِلِي جَزَعًا) أظْهِري الجَميلَ في جَزَعِك. وقال المبرّد في تعليقه على القصيدة: «**تقول العرب: الحذر أشدُّ مِن الوَقيعة. وإنّما حَقُّ الشّيء المُتَخَوَّفِ أن يكون صاحبه مرتاعًا حَذَرَ وقوعِه، فإذا وقع البأسُ ارتفع ذلك الحذرُ**».

٣- الأَلْمَعِيّ: شديد الذّكاء الَّذي إذا لَمَعَ له أوَّلُ الأمْرِ عَرَفَ آخِرَه.

٤- قال المُبَرِّد: «**يقول: يُتْلِفُ جُودًا وكرَمًا، ويُخْلِفُ نَجْدَةً واكتسابًا، وقوله: (لم يُمْتَعْ بِضَعْفٍ) أي لم يُقْرَنْ به؛ تقول: (أَمْتَعَ اللهُ بفلانٍ) أي أبقاهُ اللهُ حتّى يتمتّع به أحبّاؤُه ...، وقولُه: (ولم يَمُتْ طَبَعَا) يُقال: طَبِعَ يَطْبَعُ طَبَعًا إذا غلَبَ عليه الحِرْصُ حتّى يُغَطِّيَ على قلبِه؛ ويُقال: طَبِعَ السَّيْفُ إذا رَكِبَهُ الصَّدَأُ حتّى يُغَطِّيَ على صميمِ الحديدة**». المُرَزَّأ: الَّذي يُرْزَأُ بمالِهِ كثيرًا، لكَثْرةِ ما يُسأَلُ فيُعطي.

٥- قال المُبَرِّد: «**وقوله: (والحافظ النّاسَ في تَحُوطَ) يُقالُ للسَّنَةِ الجَدْبَةِ: تَحُوطُ وقَحُوطُ، بالتّاء والقاف جميعًا. وقولُه: (إذا لم**

يُرسِلُوا خَلْفَ عائذٍ رُبَعَا) العائذ: الَّتي معَها ولَدُها، فإذا كانتِ السَّنةُ الجَدْبَةُ نَحَرُوا الفِصالَ لِئَلَّا تُضِرَّ بالأمَّهات». والرُّبَع: الَّذي يُولَدُ في الرّبيع.

٦- قال الـمُبَرِّد: «**وقولُه: (وعزَّتِ الشَّمأَلُ الرِّياحَ) يقولُ: غلبَتِ الرِّياحَ، وتلكَ عَلامةُ الجَدْبِ والقَحْطِ؛ لأنَّ الجَنوبَ هيَ الَّتي تأتي بالنَّدى والمطَرِ؛ ويُقال: عَزَّ فلانٌ فلانًا إذا قهَرَهُ... والكَميعُ: الضَّجِيعُ... والـمُلْتَفِع: الـمُلْتَحِف، فهُوَ مُنْقَبِضٌ عنها مشغولٌ بِما يُلاقِي مِنَ القَرِّ**».

٧- قال الـمُبَرِّد: «**وقوله: (وشُبِّهَ الـهَيْدَبُ العَبامُ) فالـهَيْدَبُ: الـمُسْتَرْخِي، والعَبام: الثَّقيلُ الَّذي لا يكادُ يَنْبَعِث؛ فشُبِّهَ في انقباضِه بالسَّقْبِ، وهُو ولَدُ النّاقةِ إذا كانَ ذَكَرًا، وإن كانَ أُنْثَى فحائِلٌ. (مُلَبَّسًا فَرَعَا)** [وهي رِوايةُ المبرّد، بدلًا من (**مُجَلَّلًا فَرَعا**)] **أَيْ قد جُعِلَ عليهِ جِلْدُ الفَرَعِ، وهُو فَصِيلٌ كانوا يتقرَّبُون بهِ في الجاهليّةِ، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (لا فَرَعَ) فأبطلَهُ الإسلام**».

٨- قال المُبَرِّد: «**وقوله: (وكانتِ الكاعِبُ المُمَنَّعةُ الحسناءُ) الكاعبُ: الّتي كَعَبَ ثدياها؛ قال اللهُ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾. والممنَّعة: المحفوظةُ المخبَّأة، كانت كالسَّبُعِ في زادِ أهلِها، وإنّما مِنْ شأْنِها أنْ تُتَرَّفَ وتُنَعَّمَ إذا كانت في هذهِ الصِّفة**»؛ أي: صارت تأكلُ أيَّ شيءٍ بعدما كانت تختارُ أطايب الطعام.

٩-أَوْدى: هَلَك. **والإشاحة**: الحَذَر؛ وقال الزَّبيديّ في (تاج العروس): «**والإِشاحَةُ الحَذَرُ والخَوْفُ لِمَن حاولَ أَن يَدْفَع الموتَ، ومُحاوَلَتُه دَفْعَه بدْعَةٌ**».

١١-قال المُبَرِّد: «**وقولُه: (وذاتُ هِدْمٍ) فالأَهْدامُ: خُلْقانُ الثِّيابِ؛ فيَصِفُ الفقيرةَ وأَنَّه كانَ لَها مَلْجًا. وقوله: (عارٍ نَواشِرُها) مِنَ الضُّرِّ والجوعِ والبؤس، والنَّواشِرُ: عروقُ الذِّراع، كما قال زهير:**

ودارٌ لها بالرّقمتَيْنِ كأنّها رواجِعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

وقولُه: (تُصْمِتُ بالماءِ) أي تُسَكِّنُ طفلَها بالماء، وتسكّنُه إِذْ لم يَكُن له ثُفْلٌ [الثُّفل: ما لا يُشْرَب، كالحَبِّ والدّقيق والتَّمر]. **والجَدِعُ: السَّيِّئُ الغِذاء...**». والتَّوْلَبُ: الصَّغير؛ وقيل: هو صغير الحمار الوحشيّ، فاستعارَهُ؛ وقال الجرجانيّ في (أسرار البلاغة):

«**فأجرى (التَّوْلَبَ) على ولدِ المرأةِ، وهوَ لولدِ الحِمار في الأصل، وذلك لأنّه يصِفُ حالَ ضُرٍّ وبُؤس، ويَذكُرُ امرأةً بائسةً فقيرةً، والعادةُ في مثلِ ذلكَ الصِّفةُ بأوْصافِ البَهائم، لِيكونَ أبلغَ في سوءِ الحالِ وشدّةِ الاختلال**».

خامِسًا: الـمعاني العامّة في الرثاء:

تَشِيعُ في قصائدِ الرّثاءِ ومقَّطعاتِه معانٍ كثيرةٌ غايتُها تصويرُ الفَجِيعةِ وأثرِها في نَفْسِ الشّاعر، وفي نَفْس غيرِه أحيانًا، وما آلَتْ إليه حالُ الشّاعر والنّاس مِن بَعْدِه، وتصويرُ الـمَرْثِيّ وما كان يحملُه مِن صفاتٍ ومآثرَ ومناقب، ويُرافِقُ ذلكَ معانٍ أُخرى متعلِّقةٌ بهذين الجانبين؛ وفي الإمكان ردُّ ذلك كلِّه إلى مجموعةٍ من الـمعاني، لعلَّ أبرزَها:

١- وصفُ حُزْنِ الرّاثي والدَّعوةُ للبكاء على المَرْثِيّ:

يَكْثُرُ في مثل هذه الحالِ دَعْوَةُ العَيْنِ للبكاء، أو ذِكْرُ كَثْرَةِ دموعها وغزارتها، ولا سيّما عند النِّساء اللَّواتي يَكْثُرُ في شِعرِهِنّ التَّفَجُّع الحارّ، فإنّ النّساء - كما يقول ابنُ رَشيق- «**أَشْجَى النّاسِ قلوبًا عند المصيبة، وأشدُّهم**

جَزَعًا على هالِك، لِمَا ركّبَ اللهُ - عزّ وجلّ- في طبعهنّ مِنَ الخَوَرِ وضَعْفِ العَزيمة»؛ ومِنْ ذلكَ قول أمّ عمرٍو أختِ ربيعةَ بنِ مُكَدِّمٍ الكِنانيّ:

ما بالُ عَيْنِكِ مِنْها الدَّمْعُ مُهْراقُ سَحًّا، فلا عازِبٌ عَنْها وَلَا راقِ
أَبْكِي على هالِكٍ أَوْدَى فأَوْرَثَني بَعْدَ التَّفَرُّقِ حُزْنًا حَرُّهُ باقِ

ثُمَّ تقول:

فسَوْفَ أَبْكيكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقَةٌ وما سَرَيتُ معَ السّاري على ساقِ
أَبْكِي لِذُكْرَتِهِ عَبْرَى مُفَجَّعَةً ما إِنْ يَجِفُّ لَها مِنْ ذُكْرَةٍ ماقِي

وقولُ الخنساء:

أَلَا ما لِعَيْنِكِ أَمْ ما لَها لَقَدْ أَخْضَلَ الدَّمْعُ سِرْبالَها

وقولُها:

أَمِنْ حَدَثِ الأيّامِ عَيْنُكِ تَهْمُلُ وتَبكي على صَخْرٍ، وفي الدَّهْرِ مذْهَلُ

ومن رائعِ شعرِهنَّ الَّذي يصوّر بكاءَ المرأة وأثرَ فَقْدِها المَرْثِيَّ في حياتها ونَفْسِها ما قالته فاطمةُ بنتُ الأَحْجَمِ الخُزاعيّةُ تَرْثي زَوْجَها:

يا عَـيْنُ جُـودِي عِنْدَ كُـلِّ صَباحِ جُــودِي بأَرْبَعَــةٍ عَــلى (الْــجَرَّاحِ)
قـد كُنْتَ لِـي جَـبَلًا أَلُـوذُ بِظِلِّـهِ فتَرَكْتَنــي أَمْــشي بِــأَجْرَدَ ضَـــاحِ
قد كُنْتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ما عِشْـتَ لي أَمْشي. البِرَازَ، و كُنْتَ أَنْتَ جَناحي
فاليَـوْمَ أَخْضَـعُ لِلـذَّليلِ، وأَتَّقِـي مِــنْهُ، وأَدْفَــعُ ظالِــمِي بِالــرَّاحِ
وإذا دَعَــتْ قُمْــرِيَّةٌ شَــجَنًا لَــهَا يَوْمًـا عــلى فَـنَنٍ دَعَـوْتُ صَـبَاحي
وأَغُضُّ مِـنْ بَـصَري، وأَعْلَـمُ أَنَّـهُ قَــدْ بَــانَ حَــدُّ فَــوارِسي ورِمــاحي

وفي ذلك تعبيرٌ مُؤَثِّرٌ عن قلقِ هذه الـمرأةِ وخوفِها وشعورِها بالفراغِ القاتلِ الَّذي تركَهُ زوجُها بعد موتِه، فتغيَّرَتْ حياتُها من حالٍ إلى حالٍ؛ وذكَرَ القاليُّ أنَّ ابنَ دُرَيْدٍ أَخْبَرَهُ أنَّ أُمَّ الـمؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها تَـمَثَّلَتْ بهذهِ الأبياتِ بعدَ وفاةِ النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم.

ولكنَّ الرجالَ -وإنْ كانَ الغالبَ عليهم التَّماسُكُ وإيثارُ الظُّهورِ بالحَزْمِ والبُعْدِ عنِ الاسْتِكانَةِ- لا يخلو شِعْرُهم أحيانًا مِنَ الجَزَعِ إذا كانت صِلَةُ الشّاعرِ شديدةً بالـمَرْثِيّ، أو كان الـمرثيُّ ذا فضلٍ كبيرٍ عليه وعلى مَنْ حَوْلَه؛ وذلك كقولِ مَطْرُودِ بنِ كَعْبٍ الخُزاعيِّ يَرْثي عبدَ الـمُطَّلب وبَني

عبدِ مَنافٍ جميعًا، وكان مَطْرودٌ قد لَـجَأَ إلى عبدِ الـمُطّلِبِ فحَماهُ وأحْسَنَ إليه:

يا عَيْنُ جُودي وأَذْرِي الـدَّمْعَ واحْـتَفِلي وابْكِي حَبِيسَـةَ نَفْـسِي في الـمُلِمَّاتِ
وابْكِي عـلى كُـلِّ فَيَّاضٍ أَخِـي حَسَـبٍ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ وَهّابِ الْـجَزِيلاتِ

٢- تصويرُ البَواكِي في المَآتِم:

وكأنّ الشّاعرَ يستعينُ ببكاءِ النِّساءِ في رثاءِ صاحبِهِ بعدَ أنْ دعا عينَه للبكاء عليه؛ وبعض الشُّعراء لا يُظْهِرُ بكاءَه، ولكنَّه يعوّضُ ذلك بوَصْفِ مَآتِمِ النِّساءِ وقد تجمّعْنَ للنُّواحِ، يَبْكِينَ وهنّ حاسراتٌ، ويَفْعَلْنَ ما كانت تفعلُه النِّساءُ في الجاهليَّة ممّا نهى الإسلامُ عنه، مِن لَطْمِ الوُجوهِ والصُّدورِ وخَمْشِها وضَرْبِها بالنّعالِ والجلودِ ونَتْفِ الشَّعَرِ أو حَلْقِهِ ونحوِ ذلك؛ ومِن هذا قولُ الرَّبيعِ بنِ زيادٍ العَبْسِيّ يَرثي مالكَ بنَ زُهَيْرٍ العبسيّ:

مَـنْ كـانَ مَـسْرُورًا بِمَقْتَـلِ مَالِـكٍ فَلْيَـأْتِ سَـاحَتَنا بِوَجْـهِ نَهـارِ
يَجِـدِ النِّسـاءَ حَـواسِرًا يَنْدُبْـنَهُ يَلْطُمْـنَ أَوْجُهَهُـنَّ بالأَسْـحارِ
قَـدْ كُـنَّ يَخْبَـأْنَ الوُجـوهَ تَسَـتُّرًا فـاليَوْمَ قَـدْ أُبْـرِزْنَ لِلنُّظَّـارِ
يَـضْرِبْنَ حُـرَّ وُجـوهِهِنَّ عَـلى فتًى عَـفِّ الشَّـمائِلِ طَيِّـبِ الأَخْبـارِ

٣- استعظامُ الفَجِيعَةِ بالميتِ وإِكْبارُ شأنِهِ والتَّعَجُّبُ مِن ذَهابِ مِثْلِه:

يَظهرُ ذلك حينَ يتعجّبُ الشَّاعِرُ مِن أنَّ مَظاهِرَ الطّبيعة لا تزالُ على حالِها بعدَ موتِ المَرْثِيّ؛ وعَدَّ المبرِّدُ مِنْ عجيبِ ما قيلَ في ذلك قول النّابغةِ في حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ الفَزارِيِّ الذُّبيانيّ[1]:

يَقُولُونَ: حِصْنٌ، ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وكيفَ بِحِصْنٍ، والْجِبالُ جُنُوحُ

ولَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبورُ، ولَمْ تَزُلْ ... نُجومُ السَّماءِ، والأَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ، ثُمَّ جاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ الحَيِّ وَهْوَ يَنُوحُ

ومِن ذلك قولُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ:

---

(١) قال صاحبُ (الحُلَل في شرح أبيات الجُمَل) وقد نَسَبَ البيتَين الأَوَّلَيْنِ لِزُهَيْر: «أَرادَ أَنَّهم يقولون: (ماتَ حِصْنٌ)، ثمَّ يَسْتَعْظِمُون أن يَنْطِقُوا بذلك، ويقولون: كيفَ يَجُوزُ أن يَمُوتَ والجِبالُ لَمْ تُنْسَفْ، والنّجوم لم تنكَدِر، والقبورُ لم تُخْرِجْ موتاها، وجِرْمُ العالَمِ صَحيحٌ لَمْ يَحْدُثْ فيهِ حادِث؟». وقولُه: (والجبال جُنُوح) أي راسِخَةٌ مُستَقِرَّة. والنَّعِيُّ: الَّذي يأتي بخَبَرِ الموت. والنَّديُّ: مَجْلِسُ القَوْم الَّذي يجتمعون فيه، والقَومُ المُجتَمِعُونَ أيضًا، يُطْلَق على المكان وعلى أهلِه؛ وقد نَدا القَومُ وانتَدَوْا وتَنادَوْا إذا اجتَمَعُوا.

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ والْـ ـكَواكِبُ لِلْجَبَلِ الوَاجِبِ

لِفَقْدِ فَضَالَةَ لا تَسْتَوِي الْـ ـفُقُودُ ولا خَلَّةُ الذَّاهِبِ

فهو يَعْجَبُ مِن ألّا تُكْسَفَ الشَّمسُ ولا يُخْسَفَ البَدْرُ ولا تَغِيبَ الكواكبُ لِسُقوطِ هذا الرَّجُلِ الشّبيهِ بالْـجَبَلِ في عِظَمِه، وذلك على اعتقادِ الْـجاهليّين بأنّ الشّمسَ والقمرَ لا يُكْسَفانِ إلّا لِـمَوتِ عظيمٍ، فلا يَسْتَوِي فَقْدُ غَيْرِه وفَقْدُه، وهو الَّذي تَرَكَ خَلَّةً لا يَسُدُّها سِوَاه؛ ثُمَّ راحَ أَوْسٌ يُعَدِّدُ مناقبَهُ الكثيرة.

٤- تَعْدادُ مَناقِبِ الميتِ ومحاسِنِه:

لا يَخْلُو من هذا مُعْظَمُ رثائهم، إذ **يُعَدِّدونَ ما كان يتّصفُ به المرثيُّ مِن شجاعةٍ ونجدةٍ وحَمِيَّةٍ ومجدٍ وشَرَفٍ وكَرَمٍ وسَخاءٍ وعقْلٍ وعِفَّةٍ ونحوِ ذلك مِن صفاتِ الفتوَّةِ والرُّجولة، ويَنْفُونَ عنه كلَّ صفةٍ تَشِينُهُ، وكأنَّ الرّاثيَ يُصَوِّرُ بذلكَ الرَّجُلَ الكامِلَ المِثالَ**؛ ويأتي ذلك في الغالبِ بَعْدَ البُكاءِ أو الدَّعْوَةِ إلى البُكاءِ أو استعظامِ الـموتِ، حتّى كأنّ الشَّاعِرَ منهم -كما يقولُ الـمبرِّد- يقدِّمُ بذلكَ «اعتذارًا مِنْ إِفْراطِ التَّفَجُّعِ باستحقاقِ الـمَرْثيِّ» لهذا الرّثاءِ والبُكاء؛ ومن ذلك ما جاءَ من أبيات أَوْسٍ بعدَ البَيْتَيْنِ السّابقَيْنِ،

والشّواهدُ على ذلك كثيرةٌ فيما سبقَ من القصائدِ، ولكنَّ أبرَز ما يظهر ذلكَ في رائيّة أَعشى باهلةَ، فقد أكثرَ فيها مِنْ نَفْيِ ما يُسِيْءُ إلى أخيه، ووصَفِهِ بما يَحْسُنُ من الصِّفات، ومثالٌ آخرٌ على ذلكَ ما جاءَ في رثاءِ الخِرْنِق بنتِ هِفّانَ بنِ بَدْرٍ تَرْثي زَوْجَها وولدَها وأَخَوَيْهِ لأَبيه:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبُونَ مَعاقِدَ الأُزْرِ

إِنْ يَشْرَبُوا يَهَبُوا وإِنْ يَذَرُوا ... يَتَواعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الهُجْرِ

قَوْمٌ إذا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ ... لَغَطًا مِنَ التَّأْيِيهِ والزَّجْرِ

والخالِطِينَ نَحِيتَهُمْ بنُضارِهِمْ ... وذَوِي الغِنَى مِنْهُمْ بِذِي الفَقْرِ

هَذا ثَنائي ما بَقِيتُ عَلَيْهِمُ ... فإِذا هَلَكْتُ أَجَنَّنِي قَبْرِي

ولولا البَيْتُ الأوّلُ لَاشْتَبَهَتْ سائِرُ الأَبياتِ بقصائدِ المديح، حتّى يَصِحّ فيها قَوْلُ قُدَامَةَ بنِ جعفرٍ في حديثِه السّابقِ عن الفرْقِ بينَ الرِّثاء والمديح.

٥- الرّغبةُ في تَفْدِيَةِ المَرْثِيّ:

هذا معنًى قليلُ الورود في المراثي الجاهليّة، ومَرَدُّ ذلك إلى أنَّ الشّاعرَ الجاهليَّ واقعيٌّ في مِثْلِ هذه الحال، يعلَمُ أنَّ تَفْدِيَةَ الميتِ لا تُقَدِّمُ

شيئًا ولا تؤخّر، فإنَّ القضاءَ إذَا حُمَّ فإنَّه لا مَردَّ له؛ ولذلك يُعْقِبُ بعضُ مَنْ يُفَدِّي المرثيَّ بالإقرارِ والخضوعِ لهذا القدَرِ المَحْتُوم؛ كقولِ أمِّ عَمْرٍو أُخْتِ رَبيعةَ بنِ مُكَدِّم:

لَوْ كانَ يَرْجِعُ مَيْتًا وَجْدُ ذِي رَحِمٍ ... أَبْقَى أَخِي سالِمًا وَجْدِي وإِشْفاقِي

أَوْ كانَ يُفْدَى لَكانَ الأَهْلُ كُلُّهُمُ ... وما أُثَمِّنُ مِنْ مالٍ لَهُ وَاقِ

لَكِنْ سِهامُ المَنايا مَنْ نُصِبْنَ لَهُ ... لَمْ يُنْجِهِ طِبُّ ذِي طِبٍّ ولا راقِ

ومِمّن فدَّى المَرْثيَّ كَعْبُ بنُ سَعْدٍ الغَنَوِيُّ في قولِه:

فَلَوْ كانَتِ المَوْتَى تُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ ... بِما لَمْ تَكُنْ عَنْهُ النُّفوسُ تَطِيبُ

بِعَيْنَيَّ أَوْ كِلْتا يَدَيَّ، وقِيلَ لِي: ... (هُو الغانِمُ الْجَذْلانُ) حِينَ يَؤُوبُ

فإِنْ تَكُنِ الأيّامُ أَحْسَنَّ مَرَّةً ... إِلَيَّ فقَدْ عادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

ولأنَّ هذه الرَّغبَةَ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ استعمل الشُّعراءُ حرفَ الشرطِ (لَوْ) وهو حرفُ امتناعٍ لِامتناعٍ في تعريفِ النُّحاةِ، ويَحْمِلُ مَعْنَى التَّمَنِّي عندَ أصحابِ المعاني، وفي ذلكَ من الدَّلالةِ على الحَسْرَةِ على الميتِ والانكسارِ والخضوعِ لِقَدَرِ الموْتِ ما لا يَخْفَى.

٦- الدُّعاءُ لِلْميت:

إذا كانت تفديَةُ المرثيِّ رغبةً غَيْرَ ممكنةِ التَّحقيقِ فإنَّ الشّاعِرَ الْجَاهليَّ لَجَأَ إلى شيْءٍ آخَرَ كانَ قادرًا عليه، وهو الدُّعاءُ للميت؛ ويَكْثُرُ في هذه الحال دعاؤُهم بـ(أَلَّا يَبْعَدَ) وبـ(أَلَّا يُبْعِدَه اللهُ) وبأنْ (يُسَلِّمَ) على الميتِ أو على قبرِه، وبأنْ يَجُودَ الغمامُ على قبرِه و يَسْقِيَهُ، وكأنَّما هي رغبةٌ في إحياءِ قبرِه بالنّباتِ إذْ لا أمَلَ في حياةِ مَنْ حَجَبَتْهُ الصَّفائِحُ والتّراب، كما كان الشّاعرُ يَدعُو بالسُّقْيا لِدِيارِ الأحبَّةِ بعد أَنْ يَحْجُبَهُم عنه النَّأْيُ، فالشّاعِرُ في كِلْتا الحالَيْنِ يَشْعُرُ بِحَرَارةِ الفِراقِ وشدّتِه؛ ومن أمثلةِ دعائِهم للميتِ بأَلَّا يَبْعَدَ أو بأَلَّا يُبعِدَه اللهُ قولُ أُمِّ عَمْرٍو أختِ ربيعةَ بنِ مُكَدِّم:

فَاذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ لاقَى الّتي كُلُّ حَيٍّ مِثْلَها لاقِ

وقولُ الخِرْنِقِ:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذينَ هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الْجُزْرِ

وجَمَعَ حاطِبُ بنُ قيسٍ الأَوْسيّ في رثاءِ عَمْرِو بنِ حُمَمَةَ الدَّوْسِيِّ بينَ السَّلامِ على قَبْرِهِ والدُّعاء له بأن يسقيَهُ القَطْرُ وبألّا يُبْعِدَهُ اللهُ، فقال[1]:

سَلامٌ على القَبْرِ الَّذي ضَمَّ أَعْظُمًا ... تَحُومُ المَعالِي حَوْلَهُ فَتُسَلِّمُ

سَلامٌ علَيْهِ كُلَّما ذَرَّ شارِقٌ ... وما امْتَدَّ قِطْعٌ مِنْ دُجَى اللَّيْلِ مُظْلِمُ

فيا قَبْرَ عَمْرٍو جادَ أَرْضًا تَعَطَّفَتْ ... علَيْكَ مُلِثٌّ دائِمُ القَطْرِ مُرْزِمُ

ثمّ قال:

فَلَوْ وَأَلَتْ مِنْ سَطْوَةِ المَوْتِ مُهْجَةً ... لَكُنْتَ، ولكِنَّ الرَّدَى لا يُثَمْثِمُ

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ حَيًّا ومَيِّتًا ... فقدْ كنْتَ نُورَ الخَطْبِ والخَطْبُ مُظْلِمُ

فالفَقْدُ هُوَ فَقْدُ الإنسانِ للإنسانِ، وما المرورُ بالدِّيارِ أو القبورِ والدُّعاءُ بالسُّقْيا لها إلّا تعلُّقٌ بِمَنْ حِيلَ بينَ الإنسانِ وبَيْنَهُ بالفِرَاقِ والبُعْدِ أو بالموْت؛ ولا نَنْسَيَنْ أَنَّ الشّاعِرَ المُحِبَّ كثيرًا ما كانَ يَبْكي حينَ وقوفِهِ على ديارِ الأحبَّة كما يبكي مَن يقفُ على قبرٍ لِيَرْثِيَ فَقِيدًا.

---

(١) كلّما ذَرَّ شارِق: كلّما طلَعَتِ الشَّمْس، والشّارقُ: الشّمسُ، أَو قَرْنُها. والقِطْعُ: الطّائفة من اللّيْل. والمُلِثُّ: الدّائمُ المُقِيم. ومُرْزِم: مُصَوِّت بالرَّعْد. ولا يُثَمْثِم: لا يُبْطِئ.

ولا يقتصِرُ دعاؤُهم على السُّقيا وحدَها، فإنّ منهم مَنْ يدعو بالبَرَكةِ، ومنهم مَن يدعو بألّا يَزالَ القَبْرُ لَهُ أَرَجٌ مِنَ المِسْكِ والرَّيْحانِ وأن يظلَّ محفوفًا بالظِّلال، وأمثالِ ذلك.

٧- التّعزّي والتأسّي:

يتكرّر في هذا المعنى التّصبُّرُ والتّجلُّدُ الممزوجُ بالألمِ على الفقيدِ الَّذي لا يُنْسى، مع التَّفكُّرِ في مصيرِ كلِّ حيّ، وأنَّ الموتَ وِرْدٌ لا بُدَّ منه، وسبيلٌ لا بدَّ من سلوكِها، مع التّأسِّي بالآخَرِينَ مِمَّنْ أُصِيبوا بأهلِهم؛ وكثيرًا ما يستحضِرُ الرّاثي مُعادِلًا لَهُ مِنَ الحيوان يتأسّى بِهِ أو يشارِكُهُ في حزنِهِ كالحمامِ أو النّاقةِ أو غير ذلك ممَّا يُذَكِّرُ الرّاثي بفقيدِه ويجدِّدُ لَهُ حُزْنَهُ مِنْ جِهَةٍ، ويكونُ لَهُ عِبْرَةً ومُذكِّرًا بأنَّ الموتَ قضاءٌ لا مَوْئِلَ منه من جهةٍ أُخرى.

وتتجاذبُ الرّاثيَ في مثل هذه الحالِ **نَزْعَةٌ عقليّةٌ** تحاولُ انتشالَهُ مِن حَمْأةِ الحُزْنِ واستغراقِهِ فيه، **ونَزْعَةٌ عاطفيّةٌ** تَشدّه إلى تلك الحمأة ليكتويَ بِحَرِّها؛ وقد مرَّ بعضُ ذلكَ التّنازعِ حينَ يدعُو أحدُهم بألّا يَبْعَدَ صاحِبهُ،

ولكنَّه يَعْطِفُ على ذلكَ بأنَّ الحتوفَ مَوَارِدُ لا مَصْرِفَ عنها ولا مَوْئِلَ، وبأنَّها سبيلٌ مَسلوكة، وبأنَّ كلَّ حيٍّ لاقيها.

ومن ذلك قولُ الخنساء:

أَلَا يــا صَــخْرُ لا أَنْســاكَ حَتّــى أُفَــارِقَ مُهْجَتِي ويُشَقَّ رَمْسِي

ولَــوْلَا كَــثْرَةُ البــاكِينَ حَــوْلِي عَــلى إِخْــوانِهِمْ لَقَتَلْــتُ نَــفْسِي

ولكــــنْ لا أَزالُ أَرى عَجُــــولًا ونائِحَــةً تَنُــوحُ لِيَــوْمِ نَحْــسِ

هُمَــا كِلْتاهُمــا تَبْكِــي أَخاهــا عَشِــيَّةَ رُزْئِــهِ أَوْ غِــبَّ أَمْــسِ

ومــا يَبْكِــينَ مِثْــلَ أَخِــي ولكِــنْ أُعَــزِّي الــنَّفْسَ عَنْــهُ بالتَّــأَسِّي

فالخنساء تتأسّى بغيرها وإن كانت لا تنسى أخاها.

وفي مثلِ هذهِ الحال يظهر تجلُّدُ الرّجالِ أشدّ مِن النساءِ، ولهذا يبدأُ أوسُ بنُ حَجَرٍ قصيدتَهُ بقوله:

أَيَّتُهــا الــنَّفْسُ أَجْمِــلِي جَزَعَــا إنَّ الَّــذي تَحْــذَرِينَ قَــدْ وَقَعَــا

على أنّهُ ينبغي ألّا يُنْسَى أَثَرُ الصِّلَةِ بين الرّاثي والمرثيّ في مثل هذهِ الحال، فليستِ الخنساءُ الّتي تَرثي أخاها كأوسٍ الَّذي يَرْثِي رجلًا شريفًا

ليسَ من قبيلته؛ ولكنْ لو أخَذْنا مثالًا آخَرَ لوجَدْنَا التجلّد واضحًا عندَ الرَّجُلِ ولو كان المرثيُّ أخاه، فهذا عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبَ يقول في رثاءِ أخيهِ (زَنْدٍ):

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي صالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا
ما إِنْ هَلَكْتُ لِفَقْدِهِ لَيْسَ البُكاءُ يَرُدُّ (زَنْدَا)
أَلْبَسْتُهُ أَثْوابَهُ وخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا

٨- الحكمة:

يَكْثُرُ بُروزُ الحِكمة في المَراثي الطِّوال ولا سِيَّما تلك الّتي قالَها شُعراءُ عُرِفوا بنزعَتِهِمُ العقليّة أو بتأَلُّهِهِمْ، مثلُ لَبيدِ بنِ رَبيعةَ، ولكنْ يَنْدُرُ أنْ تَخْلُوَ معاني المراثي مِنْ أَثَرِ الحكمةِ ولو بِأنْ يُلِمَّ بها الرّاثي إلمامًا، وقد مرَّتْ أمثلةٌ على ذلك فيما سبق؛ غيرَ أنَّ عُمْقَ الحكمة النابعةِ مِنَ التفكُّر في الحياة والموت والأيّام وصروفِها تَظْهَرُ أكثرَ ما تظهرُ في شعرِ لبيدٍ وأمثالِه، وفي أشعارِ مَنْ رَثَوْا أنفسَهُم؛ كقول يزيدَ بنِ خَذّاقٍ العبديِّ:

هَلْ لِلْفَتى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ واقِ أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمامِ المَوْتِ مِنْ راقِ

وهُوَ سؤال استنكاريٌّ معناهُ النّفْيُ؛ ثمّ قال بعدَما صوَّرَ حالَهُ وقد هَيَّأَهُ النّاسُ وحملُوه إلى قبرِه:

هَـوِّنْ عَلَيْـكَ ولا تُولَـعْ بإِشْـفَاقِ فَـإِنَّما مالُنَـا لِلْـوارِثِ البـاقِي

وأمّا لَبِيدٌ فقد ظهرتِ الحكمةُ كثيفةً في مطالع مراثيه وغيرِها، كقصيدتِه في رثاء النُّعمانِ بنِ الـمُنْذِرِ الّتي يقول في أوّلها:

أَلا تَسْـأَلانِ المَـرْءَ مـا ذَا يُحـاوِلُ أَنَحْبٌ فَـيُقْضَى أَمْ ضَـلالٌ وباطِـلُ

حَبائِلُـــهُ مَبْثُوثَـــةٌ بِسَـــبِيلِهِ ويَفْـــنَى إذا مـا أَخْطَأَتْـهُ الحَبائِـلُ

إِذا المَـرْءُ أَسْرَى لَيْلَـةً ظَـنَّ أَنَّـهُ قَضَى عَمَلًا، والمَرْءُ ما عاشَ عامِلُ

فَقُـولا لَـهُ إِنْ كـانَ يَقْسِـمُ أَمْـرَهُ: أَلَمَّا يَعِظْكَ الدَّهْـرُ؟ أُمُّـكَ هابِـلُ!

ويسترسِلُ في مثلِ هذه الحكمةِ إلى أحَدَ عَشَرَ بَيْتًا مِن القصيدة، ثُمَّ يَرْثي النُّعمانَ، ولكنَّه يعودُ بعدَ ذلك ليستنبِطَ العِبْرَةَ مِن مَقْتَلِه ومِنْ تَذَكُّرِ مَنْ مَضَى مِنَ الـملوكِ إلى آخِرِ القَصيدة.

٩- التّحريضُ على الثّأر، أو التّهديدُ والوَعيدُ للأعداء، أو التّشَفّي بأخذ الثّأر:

هذا خاصٌّ ببعضِ القصائدِ الّتي يُرثَى فيها قَتِيلٌ سقطَ في معركة؛ كقول دُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ يُهَدِّدُ قَتَلَةَ أخيه في آخرها:

فإنْ تُمْكِنِ الأيّامُ والدَّهرُ تَعْلَمُوا بَنِي قارِبٍ أَنَّا غِضابٌ لِـ(مَعْبَدِ)

ولم يتجاوزْ هذا البَيْتَ؛ غيرَ أنَّ بعضَ المقاطع مِن قصائِدِ الرّثاء تتجاوزُ ذلك حتّى تتحوَّلَ تلك المقاطعُ إلى بابٍ مِن أبوابِ الفَخْرِ أو الهجاءِ، فمِثْلُ هذا أَوْلَى أنْ يُدْرَجَ في بابِهِ ويُدْرَسَ مَعَ أشباهِهِ، ويَبْقَى سائرُ القصيدةِ المتعلّقُ بالرّثاءِ في بابِهِ؛ فقولُ مُهَلْهِلٍ في قصيدةٍ رثى بها أخاه كُلَيْبًا[1]:

فَلَوْ نُبِشَ المَقابِرَ عَنْ كُلَيْبٍ فَيُخْبَرَ بـ(الذَّنائِبِ) أَيُّ زِيرِ
بِيَوْمِ الشَّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عَيْنًا وكَيْفَ لِقاءُ مَنْ تَحْتَ القُبورِ
وإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ بِـ(وارِداتٍ) بُجَيْرًا في دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ

(١) الذَّنائب: مَوْضِعٌ بنَجْد. والشَّعْثَمانِ: رجُلان من بَكْرِ بنِ وائل، وهما معاوية وصُرَيْم ابنا الشَّعثَمِ بنِ معاوية، وقيل: هما شَعْثَم وعَبد شَمْس ابنا معاوية بن عامر بن ذُهْل، وقيل غَيْرُ ذلك. ووَارِدات: المَوضِع الَّذي قَتَل فيه مُهلهلٌ بُجَيْرًا. ويَنُوءُ: يَنْهَض. ويَخْلِجُه: يَجْذِبُه. وخِدَبٌّ: ضَخْمٌ.

يَنُـــوءُ بِصَـــدْرِهِ والـــرُّمْحُ فِيـــهِ ويَخْلِجُـــهُ خِـــدَبٌّ كَـــالبَعِيرِ

هَتَكْـــتُ بِـــهِ بُيُـــوتَ بَنِـــي عُبَـــادٍ وبَعْـــضُ القَتْـــلِ أَشْـــفَى لِلصُّـــدُورِ

إلى آخِرِ القصيدةِ؛ ومثلُ هذا الشِّعرِ مِنَ الأَوْلى أَنْ يُعَدَّ مِنَ الفَخْرِ أو الحماسةِ في سياقِ قصيدةٍ واحدةٍ جَمَعَتْ معانيَ الفخرِ والحماسةِ والرّثاء، وربّما جَمَعَت معها الهجاءَ أحيانًا، بِحَسَبِ العواطفِ الّتي تنازَعَتِ الشّاعرَ حين أنشدَ قصيدتَه، لا أَنْ تُعَدَّ جميعًا مِنْ بابِ الرّثاء.

سادِسًا: ظواهرُ فنّيّةٌ وأسلوبيّة في الـمراثي الجاهليّة:

في ختام الحديث عن الرّثاء يحسُنُ التّنبيه على بعض الظّواهر الشّكليّة والـمعنويّة والأسلوبيّة في مراثي الجاهليّة، وهي:

١- **يُلْحَظُ أنّ هناك صلةً واضحةً بين الرّثاء وأغراضٍ شعريّةٍ أخرى**، ولا سِيَّما الفخرِ والحماسة، ثُمّ الهجاء، إذ كثيرًا ما تكون هذه الأغراضُ جَنْبًا إلى جنبٍ في القصيدة الواحدة، ولا يعني ذلك أنّ القصيدةَ تُقْسَمُ أقسامًا مشتّتةً، بل تكون الأغراض متشابكةً متكاملةً يُفْضِي بعضُها إلى بعض، وتتواشجُ حتّى تكونَ قصيدةً واحدةً متلائمةَ الأجزاء تعبّر عن العواطفِ الصّادقة الـمترابطة الّتي تعتلج في نفس الشّاعر.

٢- قِلّة المَراثي الّتي تبدأُ بذكرِ النّساء أو الأطلال أو رحلة الظّعائن، وهي قلّةٌ لا تَصِلُ إلى حَدِّ النُّدرةِ الّتي ذهبَ إليها ابنُ الكَلْبِيِّ، فقد نقل عنه ابنُ رَشِيقٍ أنّه لا يعلَمُ مَرْثِيَةً أوَّلُها نَسِيبٌ إلّا قصيدةَ دُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ الّتي أَوّلُها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعاقِبَةٍ وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

بَلَى إنّ هنالِكَ قصائدَ أُخرى ابتدأَتْ بذِكْرِ النّساء؛ ومن ذلك قصيدةُ لَبِيدٍ في رثاءِ أخيه الّتي أوّلُها:

طَرِبَ الفُؤادُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَطْرَبِ وَعَناهُ ذِكْرَى خُلَّةٍ لَمْ تَصْقَبِ

وقول سُلْمِيُّ بن غُوَيّةَ الضَّبِّيِّ يَرْثِي قومَه:

أَلَا نَادَتْ أُمامَةُ باحْتِمَالِ لِتَحْزُنَنِي، فَلا بِكِ، ما أُبَالِي

على أنَّ ذِكْرَ النّساءِ لَمْ يَكُنِ الهدفُ منه الغَزَلَ، وإنّما كان في الغالبِ سَبيلًا إلى ذِكْرِ مَن يرثيه الشّاعر، ولهذا تَخْلُو هذه المطالعُ أو تَكادُ مِنْ ذِكْرِ المحاسنِ والأيّام الخوالي والحنين إليها كالَّذي في غير ذلك من القصائد، ويظهَرُ فيها الحديثُ عنِ البَيْنِ والصَّرْمِ واللَّوْمِ ونحوِ ذلك، ويُعَقِّب الشّاعر بعد ذلك بأنَّه غيرُ مبالٍ بذلك، وأنَّ ذِكْرَ المرأةِ ما هو إلّا ضَلالةٌ أو سَفَه،

فإنَّ وَقْعَ الفَجيعةِ والخَطْبِ الشّديدِ أَنْساهُ كُلَّ فَجيعةٍ غيرِها وهوَّنَها عليه، ولهذا لا يجوزُ عَدُّ مثلِ هذهِ الـمطالعِ مِنَ الـمطالعِ الغَزَليّة؛ وكذلك القصائدُ الّتي ابتدأَتْ بذكرِ الأطلال أو الظّعائنِ لا تكادُ تختلفُ عن هذه؛ وكأنَّما جاء أولئكَ الشُّعراءُ بذِكْرِ النِّساءِ والدّيار والظُّعن لِجامِعِ (الفِرَاق) بين ذِكْرِها وذِكْرِ الـمرثي، فكلُّ ذلكَ مَقْرُونٌ بالحزنِ الشّديد، ولكنَّ الفَجيعةَ تكونُ أعظمَ بالفَقيدِ الَّذي لا أمَلَ في لقائه.

٣- ابتداءُ كثيرٍ مِن المَراثي الطِّوالِ بالحِكْمَة: وقد سبقَ الكلامُ على هذا.

٤- نُدْرَةُ رثاءِ الأَطفالِ والنّساء: حتّى يكادُ ذلكَ يكونُ مَعْدُومًا في الشعر الجاهليّ، على خلافِ ما نجده بعد ذلك في الشعر بعد الإسلام؛ ولم أجِدْ بعدَ طُول التّنْقيبِ عمّن رَثى أُمَّه أو أُخْتَه أو ابنتَه أو امرأتَه سِوى قَوْلِ قَيْسِ بنِ مَسعودٍ الـمُراديِّ يرثي امرأتَه:

سُعَيْدَ قُومِي عَلى سُعْدَى فَبَكِّيها ... فَلَسْتِ مُحْصِيَةً كُلَّ الَّذي فيها

في مَأْتَمٍ كَظِباءِ الرَّوْضِ قَدْ قَرِحَتْ ... مِنَ البُكاءِ عَلى سُعْدَى مَآقيها

وأمّا رثاء الوَلَدِ وقد صار رَجُلًا فليسَ قليلًا.

ولعلَّ نُدْرةَ رِثاء الأطفالِ والنّساءِ لِـمَا ذكره ابن رشيق عن صعوبة رثائهما، فقال: «**ومِن أشدِّ الرِّثاءِ صُعوبةً على الشّاعر أَنْ يَرْثِيَ طِفلًا أو امرأةً، لِضِيقِ الكلامِ عليهما وقلّةِ الصِّفات**»، يَعني أَنَّ شُعوبَ الكلام على أَفْعَالهما أو صفاتِهما ضيّقةٌ يَصْعُبُ السَّيْرُ فيها على الشّاعر، على خِلافِ الكلامِ على الفارسِ أوِ الشّريفِ وأمثالِهما، وكأنَّ ظروفَ حياةِ العرب في الْـجَاهلية ومعيشَتَهم القائمةَ على الحاجة إلى القويّ العَتِيد كانت وراءَ ذلك، فإنَّ فَقْدَ الـمرأةِ أو الطّفلِ لم يكن يؤثِّرُ تأثيرَ فَقْدِ سِواهما، وإِنْ كانَ الإنسانُ – سَواءٌ أكانَ جاهليًّا أم إسلاميًّا – يُمِضُّهَ فِقْدانُ أَيِّ عزيز؛ ولهذا كَثُرَ رثاءُ النِّساءِ والأطفالِ بَعْدَ الإسلامِ بالتّدريج، لاختِلافِ ظروفِ الحياةِ ولتأثير الإسلامِ في نفوسِ النّاسِ، حتّى وُجِدَ بَعْدَ زمَنٍ مَنْ يُكْثِرُ مِن رثاءِ أولادِه كابن الرُّوميّ، أو زوجِه كابنِ جُبَيْرٍ الأندلسيِّ الَّذي أَلّفَ ديوانًا في رثاء امرأتِه؛ فالأمر يرجع إلى الظُّروفِ الحَضاريّةِ الـمحيطةِ بالشّاعرِ وعصرِه.

٥- يُلْحَظُ أنّ الغالِبَ على مراثيهم وضوحُ ألفاظِها وبُعْدُها عنِ الغَريب، وكذلك وضوحُ الـمعاني وبُعْدُها عن الغموض؛ وذلك راجعٌ إلى قُرْبِ هذا الغَرَضِ من النّفسِ الإنسانيّة وشيوعِ ألفاظه وطولِ حياتِها على مرّ العصور، ولا سِيَّما ما يتعلق بالْـجَوانب العاطفيّة في هذا الغرَض، وهو في

هذا شَبِيهٌ بالغَزَل؛ ويضافُ إلى ذلك بُعْدُ الشُّعراءِ في مثل هذه الحال عن الصَّنْعةِ، وانسياقُهُم وراءَ سجاياهم وعواطفهم الصّادقة.

٦- كانَ تأجُّج العاطفةِ والإحساسُ بعظيمِ الفاجعةِ وراءَ ظاهرةٍ لفظيّةٍ هيَ **كَثْرَةُ استعمال مُبالَغَةِ اسمِ الفاعلِ والصِّفةِ المُشَبَّهةِ بالفعل**، وتقترِن بهذهِ الظّاهرةِ في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ ظاهرةٌ أُخْرَى هي **تَقْسِيمُ البَيْتِ** تقسيمًا تتوافر بِهِ قَوافٍ داخليّةٌ، وهو ما يُسَمِّيه البلاغيُّون بـ(**التَّرْصيع**)، وذلكَ في جُمَلٍ اسميّةٍ دالّةٍ على ثَباتِ الصِّفاتِ الّتي يذكرُها الشّاعر في الـمرثيّ، فيتآزَرُ اللَّفْظُ والـمعنى على تعميقِ الشُّعورِ بإحساسِ الرّاثي؛ ومثالُ ذلكَ قولُ الخنساء:

المَجْـدُ خَلَّتُـهُ، والْـجُودَ عِلَّتُـهُ والصِّـدْقُ حَوْزَتُـهُ إِنْ قِرْنُـهُ هابَـا
رَكّـابَ مُفْظِعَـةٍ، حَمّـالَ مُضْـلِعَةٍ إِنْ خـافَ مُعْضِـلَةً سَـنَّى لَهَـا بَابَـا
شَـهّادَ أَنْـدِيَةٍ، هَبّـاطَ أَوْدِيَـةٍ حَمّـالَ أَلْوِيَـةٍ، لِلْـوِتْرِ طَـلَّابَا

٧- وقريبٌ مِن ذلك **ظاهرةُ (التَّكْرَارِ)**، ويكون ذلك إمّا بتكرارِ عباراتٍ أو بعضِها، وإمّا بالإلحاحِ على لفظٍ أو اسمٍ يَغْلِبُ أَنْ يكونَ اسمَ الـمرثيّ، وفي ذلكَ دلالةٌ على تمكُّنِ الـمعنى الَّذي يُكَرِّرُهُ الشّاعرُ بتكرارِ

العبارةِ في نفسِه، وكذلكَ تَكرارُ اللَّفظ، ويَدُلُّ تكرارُ اسمِ المرثيّ على شدّةِ تعلُّقِ الشّاعرِ به وتَشَبُّثِهِ باسمِهِ بَعْدَ فِقْدَانِ جِسْمِه؛ ومثالُ تَكرارِ العباراتِ قَوْلُ المُهَلْهِل:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ إذا طُرِدَ اليَتِيمُ عَنِ الْجَزُورِ

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ إذا رَجَفَ العِضَاهُ مِنَ الدَّبُورِ

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ إذا ما ضِيمَ جِيرانُ المُجِيرِ

فكرَّر صِيغَةَ الشَّطْرِ الأوّلِ سَبْعَ مَرّات؛ ويُلْحَظُ أنَّ اسمَ (كُلَيْبٍ) رافقَ هذا التّكرارَ للعبارة.

٨- **تَوارَدَ الشُّعراءُ على بعضِ العباراتِ في غَرَضِ الرّثاء**، كما تَوارَدُوا على أمثالِها في الأغراضِ الأُخْرى؛ ومِن هذه العباراتِ قَوْلُهم: (إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلَها) وما يقاربُها؛ كقَوْلِ لَبيدٍ:

إنَّ الرَّزِيّةَ لا رَزِيّةَ مِثْلَها فِقْدانُ كُلِّ أَخٍ كَضَوْءِ الكَوْكَبِ

وقَوْل زُهَيْرٍ:

إنّ الرَّزِيّةَ ما لَها مَثَلٌ فِقْدانُ مَنْ يَنْمِي إلى الحَزْمِ

ومن العبارات الّتي توارد عليها الشّعراء قولُـهم: (فَاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ) أو (فَلا تَبْعَدَنْ) ونحوُهما ممّا سَبَقَ في أثناءِ الحديثِ عن الدُّعاءِ للميت.

فهذا هوَ شِعرُ الوفاءِ في الْـجاهليّة، شِعرُ القلوبِ الـمُحْتَرِقَة، أصدَقُ الشِّعر وأشْرَفُه.

****

مصادر و مراجع للاستزادة:

١- **العمدة**: لابن رشيق.

٢- **طبقات فحول الشّعراء**: لابن سلّام الجمحيّ.

٣- **التّعازي والـمراثي**: للمبرّد.

٤- **الـمراثي**: لمحمّد بن العبّاس اليزيديّ.

٥- **العقد الفريد**: لابن عبد ربّه، وقد خصّص منه للرثاء (كتاب الدّرّة في التّعازي والـمراثي).

٦- **العصر الْجاهليّ**: د. شوقي ضيف.

٧- **الأدب الْجاهليّ**: د. غازي طليمات، وعرفان الأشقر.

٨- **الشّعر الْجاهليّ، خصائصه وفنونه**: د.يحيى الْجبوريّ.

٩- **في الأدب الجاهليّ**: د.هاشم صالح منّاع.

١٠- **دراسات في الشّعر الْجاهليّ**: د. أنور أبو سويلم.

١١- **قصيدة الرّثاء، جذور وأطوار**: د.حسين جمعة.

١٢- **الشّعر وأيّام العرب في الْجاهليّة**: د.عفيف عبد الرّحمن.

المدْحُ في الشّعر الْجاهليّ

تمهيد (أصلُ المديح، واشتقاقُه، وعلاقتُه بأغراض الشّعر):

معلومٌ أنَّ أفعالَ النّاسِ في الحياةِ فيها الحَسَنُ وفيها السَّيّئ، وأنَّ مواقفَ النّاس مِن أفعالِ الآخَرِين وما يَرَوْنَهُ منهم تنحصر بين قولهم: (أحسنتَ) و(أسأت)، وقولهم: (جميلٌ) و(قبيح)؛ والشّاعِرُ صاحِبُ فَنٍّ يعبّر عن موقفِهِ بأدواتِ فنِّه، فإذا كانَ الرَّسّام يعرضُ موقفَهُ بألوانِهِ وخطوطه، ويُدْهِشُنَا بذلك، والنّحّاتُ يعرضُ موقفَهُ بإبراز تقاسيم ما ينحتُ ومقاييسِه وأبعادِه ومقاربة ذلك للمِثالِ، ويُدهِشُنَا بذلك، فإنَّ الشّاعِرَ يُدْهِشُنَا وهو يعرضُ موقفَهُ بألفاظِهِ ومعانيه وصُوَرِه، فيُبْرِزُ موقِفَهُ من الآخَرِينَ على غير ما يُبرِزُ سائرُ النّاسِ مواقفَهم بقولهم: أحسنتَ أو أسأت، وجميلٌ أو قبيح، وبِحَسَبِ موقِفِهَ يكونُ فنّهُ – أو تكون قصيدته – مَدْحًا أو هجاءً.

والـمَدْح مَصْدَرٌ من قول العرب: مَدحتهُ مَدْحًا، إذا أحسنتَ الثّناء عليه، وهُوَ نقيضُ الذّمِّ، فالـمَصْدَرُ: الـمدْح؛ والاسم: الـمدْحَةُ والأُمْدُوحَةُ والـمَدِيح، والجمعُ مِدَحٌ وأَماديح ومدائح.

وظاهرٌ مِن اشتقاق الـمديح ومعناه أنّه ضربٌ مِنَ الشِّعر يَفْتَنُّ فيه الشّاعرُ بالثّناءِ على الـممدوح بالإشادةِ بأفعالِهِ وفضائله وتَعدادِ مناقبِه، وذكرِ محاسِنِهِ في خُلُقِهِ وخَلْقِهِ، ونَفْيِ النّقائِصِ عَنه.

وما سَبَقَ يَدُلُّ على الصِّلَةِ بَين (**الـمَدِيحِ**) وغَرَضَيْنِ آخَرَيْنِ مِن أغراضِ الشِّعْرِ هما (**الرِّثاءُ**) و(**الهِجاء**)، فأمّا الرِّثاءُ فإنّ مِنْ أبرز الـمعاني الّتي تداولَها الشّعراء فيه ذكرَ مناقبِ الـمرثيّ ومحاسِنِه، والصِّلةُ واضحةٌ بين هذَيْنِ الغَرَضَيْنِ من هذه الْـجِهة، ولهذا قال قُدامَةُ بنُ جَعْفَرٍ في كتابِه (نقد الشِّعر) ونَقَلَهُ ابنُ رَشيقٍ في كتابه (العُمْدَة): «وليس بين الرِّثاء والـمدح فرقٌ، إلَّا أن يَخْلِطَ الرِّثاءَ شيءٌ يَدُلُّ على أنَّ الـمقصودَ بِهِ ميتٌ، مِثْلُ (كان) أو (عَدِمْنَا منهُ كَيْتَ وكَيْتَ) وما يُشاكِلُ هذا، ليُعْلَمَ أنّه ميت»؛ وأمّا الهِجاءُ فإنَّ غايَتَهُ ذَمُّ الـمهْجُوِّ بِنَفْيِ الـمحاسِنِ والفَضائِلِ عَنْه، وإِثْباتِ النّقائِصِ والـمَثالِبِ لَه، فَهُوَ نَقِيضُ الـمدِيح.

وربطَ ابنُ رَشيق غَرَضَ الـمديح بِغَرَضٍ آخَرَ هو (**الفخر**) للسّبب نَفْسِه، فقال: «والافتخارُ هُوَ الـمدحُ بعينِهِ، إلَّا أنّ الشّاعرَ يخصُّ بِهِ نفسَهُ

وقومَهُ، فكُلُّ ما حَسُنَ في الـمدحِ حَسُنَ في الافتخار، وكلُّ ما قَبُحَ فيه قَبُحَ في الافتخار».

وتكلّم قبلَ ذلكَ كلامًا طويلًا على (الـمدح) ومعانيه، ونقل كثيرًا منه عن كتابِ (نَقْد الشِّعْر) لِقُدَامَةَ بنِ جَعْفَر، سيَبْدأُ بهِ الحديثُ عن هذا الغَرَض، مَعَ اختصَارِ فُضولِهِ وما لا علاقةَ قويّةً له بمدائح الْجاهليّة، ثُمَّ تأتي بعضُ مدائِحِ الْجاهليّين للاطّلاع على دوافعها ومعَانِيها وما فيها من ظواهر.

أوَّلًا: معاني الـمدح وفروعُها:

بدأ ابنُ رَشِيقٍ بإرشاد الشّعراء إلى السّبيل الّتي ينبغي أن يسلكوها في مديح النّاس على اختلافِ طبقاتهم، من حكّامٍ ووزراءَ وقادةٍ وقضاة، وذكَرَ في أثناء ذلك **معانيَ الـمديح الّتي يتناولها الشّعراء**، ومهّد لذلك بقوله:

«وممَّا قُدِّم بهِ زهيرٌ قولُه[1]:

(١) سِنانٌ: أبو هَرِمِ بنِ سِنانٍ، وكان من سادة غَطَفانَ وقادَتِها، وقد مدحه زُهَيْرٌ كما مدَحَ ابنَهُ هَرِمًا. وفَزِعُوا: هَبُّوا للإغاثَة. ومُرَزَّؤُون: أي كُرَماءُ أَسْخِياءُ يُصابُونَ

لَـو كـانَ يَقْعُدُ فَـوْقَ الشَّـمْسِ مِـن كَـرَمٍ قَـوْمٌ بِأَوَّلِـهِمْ أَو مَجْـدِهِمْ قَعَـدُوا
قَـوْمٌ (سِـنانٌ) أَبُـوهُمْ حِـينَ تَنْسُـبُهُمْ طابُوا وطابَ مِـنَ الأَبْنـاءِ مـا وَلَـدُوا
إِنْـسٌ إذا أَمِنُـوا، جِـنٌّ إذَا فَزِعُـوا مُـرَزَّؤُونَ، بَهالِيـلٌ إذا جُهِـدُوا
مُحَسَّـدُونَ عـلى مـا كـانَ مِـنْ نِعَـمٍ لا يَنْـزِعُ اللهُ مِـنْهُمْ مـا لَـهُ حُسِـدُوا

وقدّمَهُ قدامةُ بن جعفرٍ الكاتب، فقال في كتابه (نقد الشّعر): ولـمّا كانت فضائلُ النّاسِ... -على ما عليهِ أهلُ الألبابِ من الاتّفاقِ في ذلك- إنّما هي: **العَقْل، والعِفّة، والعَدْلُ**[1]، **والشّجاعة**؛ كانّ القاصدُ للمدح بهذِه الأربعة مُصيبًا، وبما سواه مخطئًا؛ فقال زهيرٌ[2]:

أخِـي ثِقَـةٍ، لا تُتْلِـفُ الخمـرُ مالَـهُ ولكنَّـهُ قـد يُهلِـكُ الـمالَ نائلُـهْ

كَثِيرًا في أَمْوالِـهِم. وبهاليلُ: أَجْوادٌ كُرَماءُ. وجُهِدُوا: أي أصابَهُمُ الْـجَهْدُ ومَشَقَّةُ قِلَّةِ الـمال.

(١) العَدْلُ: الاستقامة؛ انظر تاج العروس (عدل).

(٢) في مدح حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ الفَزاريِّ؛ كان عمرُو بنُ هِنْدٍ طمِعَ فيهم، فأعدَّ له جيشًا من أسَدٍ وغَطَفانَ، فصدَّ عنهُ ابنُ هنْدٍ وكَرِهَ قتالَه. وأخو ثِقَةٍ: يُوثَقُ بِما عِندَهُ مِن خَيْر.

لأنّه قد وصفه **بالعفَّة** لقلّةِ إمعانِهِ في اللَّذّات، وأنه لا يُنْفِدُ فيها مالَه، وبالسَّخَاءِ لإهلاكِهِ مالَهُ في النَّوال، وانحرافَهِ إلى ذلكَ عنِ اللذّات، وذلكَ هُوَ **العَدْلُ**.

ثمّ قال[1]:

تـــراهُ إذا مـــا جئتَـــهُ مُـــتَهَلِّلًا كأنَّكَ تُعْطيهِ الَّذي أنتَ سائِلُهْ

أرادَ أنَّ فَرَحَهُ بما يُعطي أكثرُ مِن فرحِه بما يأخُذ، فزادَ في وَصفِ السّخاءِ منه بأنْ جعلَهُ يَهَشُّ، ولا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ ولا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِه.

ثمَّ قال:

فَمَـنْ مثـلُ حِصْـنٍ في الحـروبِ ومثلُـهُ لإنكـارِ ضـيْمٍ، أو لأمـرٍ يُحاوِلُـهْ؟

فأتى في هذا البيت بالوصفِ من جهةِ **الشّجاعةِ والعَقْلِ**.

فاستوفى ضروبَ المدح الأربعةَ الّتي هي فضائلُ الإنسانِ على الحقيقةِ، وزادَ ما هوَ وإن كانَ داخلًا في الأربعةِ، فكثيرٌ مِنَ النّاس مَنْ لا

---

(١) متهلِّلًا: مُسْتَبْشِرًا طَلْقَ الوَجْهِ.

يعرفُ وَجْهَ دخولِهِ فيها: حيثُ قال: (أخي ثقةٍ)= فوصفَهُ بالوفاءِ، والوفاءُ داخلٌ في هذه الفضائل الّتي قدّمْنَا».

وهذه المعاني الأربعةُ يَرْجِعُ اثْنانِ منها إلى ذاتِ الإنْسانِ في عَقْلِه ونَفْسِه، واثْنانِ إلى عَلاقَتِهِ بالنّاسِ والخَلْقِ مِنْ حَوْلِهِ أَعْداءً وأصدِقاء؛ **فالعَقْلُ** خاصٌّ بِسَلامَةِ التَّفْكِيرِ ورَزانَتِه وسعَةِ العِلْمِ والقُدْرَةِ على التّعْبِيرِ عن ذلك، **والعِفَّةُ** خاصَّةٌ بِسَلامَةِ النَّفْسِ وتَزْكِيَتِها وكَبْحِها عَنْ شَهَواتِها، **والعَدْلُ** خاصٌّ بالاستِقامَةِ في مُعامَلَةِ الأَهْلِ والأَصْحابِ ومَنْ يَلُوذُ بالإنسان، **والشَّجاعَةُ** خاصَّةٌ بالْجُرْأَةِ في مواجَهَةِ العَدُوِّ والمَصاعِب.

والشّعراءُ في أماديحهم يدورونَ حولَ هذه المعاني الأربعةِ مِن الفضائل الّتي ذكرها ابنُ رشيقٍ نقلًا عن قُدَامةَ بنِ جعفر، ويتفنّنون في هذه المعاني ويفرّعونَها بالأوصاف المتعلّقة بها، فلا يَفْطَنُ النّاسُ إلى ذلك، ولذلكَ ذهبَ يفرّع هذه المعاني بحَسَبِ تفنُّنِ الشّعراء، فقال:

«وقد يتفنَّنُ الشّعراء، فيعدُّون أنواعَ الفضائلِ الأربعِ وأقسامَها، وكلٌّ داخلٌ في جُمْلَتِها؛ مثلُ أَنْ يَذْكُروا **ثَقابَةَ المعْرِفَةِ**[1] **والحياءَ والبَيانَ**

(١) وضوحها والحِذْق فيها ونَفاذها.

والسِّياسةَ والصَّدْعَ بالـحُجَّةِ والعِلْمَ والحِلْمَ عن سَفاهَةِ الْـجَهَلَةِ، وغيرَ ذلك ممَّا يَجْرِي هذا الـمجرى، **وهي مِن أقسامِ العَقْل**؛ وكَذِكْرِهم **القناعةَ** وقلّةَ **الشَّرَهِ** وطهارةَ **الإزار**، وغيرَ ذلك، **وهي مِن أقسامِ العِفَّة**؛ وكَذِكْرِهم **الحِمايةَ والأَخْذَ بالثَّأْرِ والدِّفاعَ عَنِ الْـجَارِ والنِّكايَةَ بالعَدُوِّ وقَتْلَ الأَقْرَانِ والمَهابَةَ والسَّيْرَ في الـمهامِهِ والقِفارِ الـموحِشَةِ**، وما شاكَلَ هذا، **وهي مِنْ أَقْسامِ الشَّجاعة**؛ وكَذِكْرِهم **السَّماحَةَ والتَّغابِيَ والانظلامَ والتبرّعَ بالنّائِلِ وإِجابَةَ السّائلِ وقِرَى الأَضْياف**، وما جانَسَ هذه الأشياءَ، **وهي مِن أقسامِ العَدْل**».

ثمَّ وقفَ عندَ ضَرْبٍ آخَرَ مِن تفنُّنِ الشُّعراءِ وتَوْليدِهم الـمعانيَ مِنْ تركيبِ بعضِها معَ بعضٍ، فقال: «وأمّا تركيبُ بعضِها معَ بعضٍ فيَحْدُثُ منه ستّةُ أقسامٍ:

- يحدُثُ مِن تركيب **العقلِ معَ الشّجاعة**: الصَّبْرُ على الـملِمّاتِ ونوازِلِ الخُطوب، والوفاءُ بالإيعاد.

- وعن تركيب **العقل مَعَ السّخاء**[1]: البِرُّ، وإنجازُ الوَعْد، وما أشبهَ ذلك.

- وعن تركيب **العقل مَعَ العفَّة**: التَّنَزُّهُ، والرَّغْبَةُ عنِ المسألةِ، والاقتصارُ على أَدْنَى مَعِيشة.

- وعن تركيبِ **الشَّجاعةِ مع السَّخاء**: الإتلافُ والإخلافُ، وما جانسَ ذلك.

- وعن تركيبِ **الشَّجاعةِ مع العِفّة**: إنكارُ الفَواحِش، والغَيْرَةُ على الحُرَمِ.

- وعن تركيبِ **السَّخاءِ مع العِفّة**: الإسعافُ بالقُوتِ، والإيثارُ على النّفس، وما شاكَلَ ذلك».

وهذا الَّذي ذكره ابنُ رَشيقٍ نقْلًا عن قُدامَةَ مِنَ الفضائل الأربعِ وتفنُّن الشُّعراءِ في ذِكرِ كلِّ فضيلةٍ وتوليدِهم المعانيَ والأوصافَ منها هي الّتي يتداولُها الشُّعَراءُ في أماديحِهم على اختلافِ العصور، ومنهم

---

(١) السّخاءُ مِنَ العَدْلِ.

الجاهليُّون، وهمُ السّابقون إليها المجَلُّونَ لَهَا بلغتهم العاليةِ وفَنِّهم الأَصيل.

ثانِيًا: التّكَسُّبُ بالشّعر، و الأَنَفَةُ مِن ذلك :

وقف ابنُ رشيقٍ بعدَ حديثه عن المعاني عندَ مجموعة من الأشعار الّتي استحسَنَها أهلُ العلم بالشّعر، ووقفَ عندَ آرائِهم في أَمْدَحِ النّاس، وفي أمدحِ بيتٍ؛ وهما أمرانِ متعلِّقانِ باختلافِ الأذواق والعلم واختلاف العصور.

ووقفَ في موضعٍ آخَرَ مِن كتابه عندَ **التَّكَسُّب بالشِّعر**، ذلك أنّ الشّعراءَ في عصرِه أَكْثَرُوا مِن التَّكَسُّب حتّى لم يَعُدْ كثيرٌ مِن شعرِ المديح يَهُزُّ ممدوحًا أو يعودُ على صاحبِه بخير، ولذلك كَثُرَتْ شَكْوَى الشُّعراء في ذلك العصرِ مِن قِلَّةِ مَنْ يَجُود؛ قال ابنُ رَشيقٍ:

«وكانتِ العرب لا تتكسّبُ بالشّعر، **وإنّما يَصْنَعُ أحدُهم ما يصنَعُه فُكاهَةً**[1] **أو مُكافأةً عَنْ يَدٍ لا يَستطيعُ أداءَ حقِّها إلّا بالشُّكر إعظامًا لها**؛ كما قالَ امرُؤُ القيس بنُ حُجْرٍ يَمْدَحُ بني تَيْمٍ رَهْطِ المعَلَّى:

(١) الفُكاهَةُ: الإعجاب، والفُكاهَةُ أيضًا: طِيبُ النَّفْسِ.

أَقَرَّ حَشَا امرِئِ القَيْسِ بنِ حُجْرٍ بَنُو تَيْمٍ مَصابِيحُ الظَّلامِ

لأنَّ المعلّى أحسنَ إليهِ وأجارَهُ حين طلبَهُ المنذِرُ بنُ ماءِ السَّماء... فقِيلَ لِبَنِي تَيْمٍ (مصابيحُ الظَّلام) مِن ذلك اليوم، لبيتِ امرئ القيس.

وقالَ أيضًا لِسَعْدِ بنِ الضَّبابِ [الإياديِّ][1]:

سأَجْزِيكَ الَّذي دافَعْتَ عنِّي وما يَجْزِيكَ عَنّي غَيْرُ شُكْرِي

فأخبَرَهُ أنَّ شُكْرَهُ هو الغايةُ في مُجازاته... .

حتّى نشأ النّابغةُ، فمدحَ الملوكَ، وقَبِل الصِّلةَ على الشِّعر وخَضَعَ للنُّعمانِ بنِ المنذر؛ وكان قادرًا على الامتناع منه بمَنْ حولَهُ مِن عشيرتِهِ أو سار إليه مِن مُلوكِ غسّانَ، **فسَقَطَتْ مَنْزِلَتُه**، وتكسّبَ مالًا جَسِيمًا حتّى كانَ أَكْلُهُ و شَرابُهُ في صِحافِ الذّهَبِ والفِضَّةِ وأَوانيهما مِن عَطايا الملوك.

وتكسَّبَ زهيرُ بنُ أَبي سُلْمَى بالشِّعر يَسِيرًا مع هَرِمِ بنِ سِنانٍ.

---

(١) كان المنذرُ بنُ ماءِ السَّماءِ غَزا كِنْدَةَ فأسرَ اثْنَيْ عَشَرَ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِهم وقَتَلَهُمْ، وكان امرُؤُ القَيْسِ منهم، فأجارَهُ سَعْدٌ هذا.

فلمّا جاء الأعشى جعل الشّعرَ مَتْجَرًا يَتَّجِرُ به نحو البُلدان، وقَصَدَ به حتّى مَلِكَ العَجَم...، وأكثرُ العلماء يقولون إنَّه أوّلُ مَن سَأَلَ بشِعْرِه؛ و قد عَلِمْنَا أنّ النابغةَ أسَنُّ منه وأَقْدَمُ شِعرًا،... .

ثمّ إنّ الحُطَيْئَةَ كَثَّرَ مِن السُّؤالِ بالشِّعر، وانحطاطِ الهِمَّةِ فيه، والإلْحَافِ، حتّى مُقِتَ وذَلَّ أهلُه[1]؛ و هَلُمَّ جرًّا إلى أن حُرِمَ السّائلُ ... .

وأمّا أكثرُ مَنْ تَقَدَّمَ فالغالبُ على طِباعِهم **الأَنَفَةُ من السّؤال بالشّعر**، وقلّةُ التَّعَرُّضِ به لِما في أيدي النّاس، إلّا فيما لا يُزْري بِقَدْرٍ ولا مُرُوءَةٍ ... .

وقالوا: كانَ الشّاعرُ في مُبْتَدَأِ الأمرِ أَرْفَعَ مَنْزِلةً مِنَ الخطيب، لِحاجتِهم إلى الشّعر في تخليدِ مآثرِهم، وشَدِّ العارِضَةِ[2]، وحمايةِ العَشِيرةِ، وتَهَيُّبِهم عند شاعِرِ غيرِهم من القبائل فلا يُقدِمُ عليهم خَوْفًا من شاعرهم على نفسِه وقبيلتِه؛ **فلمّا تَكَسَّبوا به وجعلُوهُ طُعْمَةً، وتَوَلَّوْا بِه الأعراضَ وتناوَلُوها، صارَتِ الخَطابةُ فوقَه...»**.

ثالِثًا: مثالان من مدائح الجاهليّين:

---

(١) أي مُقِتَ الشّعرُ وذَلّ أهلُه.

(٢) أي: القدرة على الكلام وتنقيحه.

المثال الأول: قال النّابغةُ يمدحُ عَمْرَو بنَ الحارثِ الأصغرِ الغَسَّانيّ، وقد وَقَعَ في الأَسْرِ عند الغسّانِيِّين عددٌ من بَنِي ذُبيانَ فقالَ هذه القصيدة يمدحُ عَمْرًا لِيُطْلِقَهُم، وقيل: إنّه قالَها لَـمّا أَلْـجَأَهُ عَمْرٌو بَعدَما غَضِبَ النُّعمانُ بنُ بنُ المنْذِرِ عَلَيْه:

١-كِلِينِـي لِـهَمٍّ -يـا أُمَيْمَـةَ!- نَـاصِبِ ... ولَيْـلٍ أُقاسِـيهِ بَطِـيْءِ الكَواكِـبِ

٢-وصَـدْرٍ أَراحَ اللَّيْـلُ عَـازِبَ هَمِّـهِ ... تَضاعَفَ فيهِ الـحُزْنُ مِـنْ كُـلِّ جانِـبِ

٣-تَقاعَسَ حتَّـى قُلْـتُ: لَيْـسَ بِمُنْقَـضٍ ... وَلَـيْسَ الَّـذي يَـرْعَى النُّجُـومَ بِآيِـبِ

٤-عَـلَيَّ لِعَمْـرٍو نِعْمَـةٌ، بَعْـدَ نِعْـمَةٍ ... لِـوالِدِهِ، لَيْسَـتْ بِـذاتِ عَقـارِبِ

٥-حَلَفْـتُ يَمِـينًا غَـيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّـةٍ ... ولا عِلْـمَ إلّا حُـسْنُ ظَـنٍّ بِغائِـبِ

٦-لَـئِنْ كـانَ لِلْقَـبْرَيْنِ: قَـبْرٍ بـ(جِلِّـقٍ) ... وقَبْرٍ بِـ(صَيْداءَ) الّتي عِنْـدَ (حارِبِ)

٧-ولِلْحـارِثِ الْـجَفْنِيِّ سَـيِّدِ قَوْمِـهِ ... لَيَلْتَمِسَـنْ بالْـجَمْعِ أَرْضَ الـمُحـارِبِ

٨-لَـهُمْ شِـيمَةٌ لَمْ يُعْطِهـا اللهُ غَـيْرَهُمْ ... مِـنَ النّـاسِ، والأَحْـلامُ غَـيْرُ عَـوازِبِ

٩-مَخافَتُـهُمْ ذاتُ الإلَـهِ، ودِينُـهُمْ ... قَـوِيمٌ، فَـما يَرْجُـونَ غَـيْرَ العَواقِـبِ

١٠-وَثِقْـتُ لَـهُ بالـنَّصْرِ إذْ قِيـلَ قـد غَـزَا ... بِغَسّـانَ غَسَّـانِ الـمُلُوكِ الأَشـايِبِ

١١-بَنِـي عَـمِّهِ دِنْـيَا وعَمْـرِو بـنِ عـامِرٍ ... أُولئِـكَ قَـوْمٌ بَأْسُـهُمْ غَـيْرُ كـاذِبِ

١٢-إذا مـا غَـزَوْا بالْـجَيْشِ أَبْـصَرْتَ فَـوْقَهُمْ ... عَصـائِبَ طَـيْرٍ تَهْتَـدي بعَصـائِبِ

١٣-جَـوانِحَ، قـد أَيْقَـنَّ أنّ قَبيلَـهُ ... إذا مـا الْتَقَـى الْـجَمْعانِ أوّلُ غالِـبِ

١٤-يُصـانِعْنَهُمْ حَتّـى يُغِـرْنَ مُغـارَهُمْ ... مِـنَ الضّـارِياتِ بالـدّماءِ الـدَّوارِبِ

١٥-لَـهُنَّ علَـيهِمْ عـادةٌ قَـدْ عَرَفْنَهـا ... إذا عُـرِّضَ الخَطِّـيُّ فَـوْقَ الكَواثِـبِ

١٦-تَــراهُنَّ خَلْــفَ القَــوْمِ زُورًا عُــيُونُها جُلُــوسَ الشُّــيوخِ في مُسُــوكِ أَرانِــبِ

١٧-عَــلى عارِفــاتٍ للطِّعــانِ، عَــوابِسٍ بِهِــنَّ كُلــومٌ بَــيْنَ دامٍ وجالِــبِ

١٨-إِذا اسْــتُنْزِلُوا عَنــهُنَّ لِلطَّــعْنِ أَرْقَلُــوا إِلى الــمَوْتِ إِرْقــالَ الجِــمالِ الــمصَاعِبِ

١٩-ولا عَيْــبَ فــيهِمْ غــيرَ أَنّ سُيُوفَــهُمْ بِهِــنَّ فُــلُولٌ مِــنْ قِــراعِ الكَــتائِبِ

٢٠-تُخَــيِّرْنَ مِــنْ أَزْمــانِ يَــوْمٍ حَلِيمَــةٍ إِلى اليَــوْمِ قَــدْ جُــرِّبْنَ كُــلَّ التَّجــارِبِ

٢١-تَجُــذُّ السَّــلُوقيَّ الــمضاعَفَ نَسْــجُهُ ويُوقِــدْنُ بالصُّــفّاحِ نــارَ الــحُباحِبِ

٢٢-بِــضَرْبٍ يُزِيــلُ الــهَامَ عــن سَــكِناتِهِ وطَــعْنٍ كــإِيزاغِ الــمَخاضِ الضَّــوارِبِ

٢٣-فَهُــمْ يَتَســاقَوْنَ الــمنِــيَّةَ بَيْــنَهُمْ بأَيْــدِيهِمُ بِــيضٌ رِقــاقُ الــمضَارِبِ

٢٤-يَطِــيرُ فُضَاضًــا بَيْــنَهُمْ كُــلُّ قَــوْنَسٍ ويَتْبَعُهــا مِــنهُمْ فَــرَاشُ الحَــواجِبِ

٢٥-رِقــاقُ النِّعــالِ، طَيِّــبٌ حُجُــزاتُهُمْ يُحَــيَّوْنَ بالرَّيْحــانِ يَــوْمَ السَّباسِــبِ

٢٦-تُحَيِّــيهِمُ بِــيضُ الوَلائِــدِ بَيْنَــهُمْ وَأَكْسِــيَةُ الإِضْرِيــجِ فَــوْقَ الــمَشَاجِبِ

٢٧-يَصُــونُونَ أَجْســادًا طَــوِيلًا نَعِيمُهــا بِخالِصَــةِ الأَرْدَانِ خُــضْرِ الــمَناكِبِ

٢٨-وَلا يَحْسِــبُونَ الــخَيْرَ لا شَــرَّ بَعْــدَهُ وَلا يَحْسِــبُونَ الــشَّرَّ ضَرْبَــةَ لازِبِ

٢٩-حَبَــوْتُ بِهــا غَسّــانَ إِذْ كُنْــتُ لاحِقًــا بِقَــوْمِي وَإِذْ أَعْيَــتْ عَــلَيَّ مَــذاهِبِي

غَرِيبُ الأَلفاظِ والمَعاني:

١- كِلِيني: دَعِيني. و(يا أُمَيْمَةَ) جاءت الرِّوايَةُ بفتح آخِرِه، وحَقُّه الضَّمّ، وللنُّحاةِ أقوالٌ في تخريجِ ذلك؛ وهي ابنَتُه (أُمامَة)، فصَغَّر

الاسم للتَّوَجُّعِ. وناصب: ذو نَصَب، وهو شِدَّةُ التَّعَب. و(بَطِيْء الكَواكِب) كِنايَةٌ عَنْ طُولِ اللَّيْلِ.

٢- أراحَ الشّيْءَ: رَدَّه مَساءً. والعازب: البَعِيد.

٣- يُرْوَى: «تَطاوَلَ». وآيِب: راجِع. و(الَّذي يَرْعَى النّجوم) كِنايَةٌ عَنِ الصُّبْح.

٤- ليسَتْ بِذاتِ عَقارب: أي لا مكروهَ فيها.

٥- يُرْوى: «بِصاحِبِ». وغير ذي مثنويّة: لا أستَثْني.

٦- لَئِنْ كانَ للقَبْرَيْن: أي ابنَ صاحِبَيْهِما. وجلِّق: قيل هي دمشق، وقيل موضع عندها. وصَيْداء: موضع في حَوْرانَ غيرُ الّتي على ساحِلِ الشّام. وحارِب: موضع في حَوْران.

٧- يُرْوَى: «لَيَلْتَمِسَنْ بالجيشِ دارَ ...».

٨- الشِّيمة: الخُلُق. وغير عوازِب: حاضرة غير بعيدة.

٩- مَخافَتُهُم: ما يَخافُونَه. ويُرْوَى: «مَحَلَّتُهم ذاتُ الإِلَه» مكان حلولهم؛ وذاتُ الإله: يعني بيتَ المقْدِس وأرضَ الشَّام؛ ويُرْوَى: «مَجَلَّتُهُمْ» بالجِيم، يَعْنِي كِتابهم المقدَّس كِتاب الله. وما يرجُون: ما يخافون.

١٠- يُرْوَى: «... قد غَزَتْ كَتائِبُ مِنْ غَسّانَ غَيْرُ أَشائِبِ». والأشايِب: جَمْعُ الأَشْيَب؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ قد جَرَّبُوا الأُمورَ، ولَيْسُوا أَغرارًا. والأَشائِب: الأَخْلاط.

١١- دِنْيا: الأدنَوْنَ. وبنو عَمرو بن عامر: منهم غسّان؛ وعَمْرُو بنُ عامِرٍ هو الَّذي خَرَجَ بِمَنْ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ الأَزْدِ قَبْلَ انْهِيارِ سَدّ مأْرِب.

١٢- يُرْوَى: « حَلَّقَ فَوْقَهُمْ». والعصائِب: الجَماعات.

١٣- جوانح: مائلات؛ استعدادًا للوقوعِ على القتلى.

١٤- يُرْوَى: «يُصاحِبْنَهُمْ». ويُصانِعْنَهُم: يَفْعَلْنَ كما يَفْعَلُون؛ أي تُغِيرُ كما يُغِيرُون. والضّاريات: المتعوِّدات، مِنْ ضَرِيَ بالشَّيْءِ إذا اعتادَ عَلَيْه.

١٥- الخطِّيُّ: أي الرِّماح، منسُوبَة إلى (الخَطِّ)، وهُوَ مِيناءٌ على الخَلِيجِ العَرَبِيّ يُعْرَفُ اليَوْمَ باسْمِ (القَطِيف). والكواثِب: جَمْعُ الكَاثِبَةِ، وهي مكان اجتماع كتفَيِ الفرسِ خلفَ العُنُقِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الرُّمْحِ.

١٦- يُرْوَى: «خُزْرًا عيونُها ... في ثِيابِ المرانِبِ» أي تنظر بِمَآخيرِ عيونها. وزُورًا عُيُونُها: جَمْعُ الأَزْوَرِ، وهو الَّذي يَنْظُرُ نظْرَةَ العَدُوّ.

والـمُسُوك: الجُلُود. والمرانب: ثياب سُود، وقيل: من جلود الأرانب.

١٧- عارِفات لِلطِّعان: صابِرات لِلطِّعانِ بِالرِّماح. والكلوم: الجروح. والدَّامِي: الَّذي لا يَزالُ يَدْمَى. والجالِب: اليابس الَّذي قارَبَ الشِّفاءَ.

١٨- أرقَلوا: أسرعوا؛ والإِرقالُ: نَوْعٌ مِنَ العَدْوِ السَّرِيع. والـمَصاعِب: جَمْعُ الـمصْعَب، وهُوَ الفَحْلُ الَّذي لَمْ يَمْسَسْهُ حَبْلٌ ولَمْ يُرْكَب.

١٩- الفلول: الثُّلوم. والقِراع: الـمجالَدَة.

٢٠- يُرْوَى: «تُوَرِّثْنَ». ويوم حليمة: وقعة كانت بين غسّان وملوك الحيرة، وقيل: بينهم وبين الضَّجاعِمَةِ السَّلِيحِيِّين الَّذين كانوا ملوك الشّام قبلَ غسَّان.

٢١- يُرْوَى: «تَقُدُّ ... وتُوقِدُ ...». والسَّلُوقيّ: أراد الدّروع الـمنسوبة إلى سَلُوق، وهو موضع. والصُّفَّاح: الحجارة العِراضُ الصُّلْبَة. والحُباحِب: دُوَيْبَّة تُضيء باللّيل.

٢٢- السَّكِنات: جَمْعُ السَّكِنَةِ، وهي الفِقْرَةُ الّتِي يَسْتَقِرُّ فيها الرَّأْسُ؛ أراد بها الأعناق. وإيزاغ الـمخاض: نَفْحُ النُّوق ببَوْلِها مُقَطَّعًا إذا

أرادَها الفَحْلُ؛ والـمَخاض: الإِبِلُ الحَوامِلُ. والضّوارب: الّتي تضرب الفحل بأرجُلِها.

٢٣- الـمضارِب: جَمْعُ مَضْرِبِ السَّيْف، وهو حَدُّه.

٢٤- الفُضاض: القِطَع الـمتفرِّقة. والقَوْنَس: أعلى النّاصية، ورَأْسُ البَيْضَةِ (الـخُوذَة). والفَراش: عظامٌ رِقاقٌ وراء الخياشيم.

٢٥- طيِّبٌ حُجُزاتُهم: كناية عن عفّة فروجِهم. والسّباسب: عِيدٌ من أعياد النَّصارى.

٢٦- الوَلائِد: الإماءُ البِيضُ. والإضريج: الـخَزُّ الأحمر. والـمَشاجِب: جَمْعُ الـمِشْجَب، وهُو خَشَبَاتٌ تُعَلَّقُ عليها الـملابِس.

٢٧- خالصة الأردان: أي ثياب ذات أكمامٍ بلون أبيضَ ناصِع. يقول: يَلْبَسون ثيابًا بيضًا خضراءَ الـمناكب.

٢٩- بها: يعني القصيدة. وأعيَت عليَّ مَذاهبي: أي ضاقت عليَّ طُرُقي، وذلك لأنّه كان هاربًا من النُّعمان بن الـمنذر ملك الحيرة، أو ما كانَ مِن أَسْرِ قَومِه لَدى الغَسّانِيّين.

المثال الثّاني: قال الأعشى يمدحُ هَوْذَةَ بنَ عليٍّ الحَنَفِيَّ، بعدما وصفَ ناقَتَهُ الّتي ارتحل بها إليه:

١-إِلَى هَـوْذَةَ الوَهَّـابِ أَهْـدَيْتُ مِدْحَتِـي ... أُرَجِّـي نَـوالًا فاضِـلًا مِـنْ عَطائِكـا

٢-تَجـانَفُ عَـنْ جُـلِّ (اليَمَامَـةِ) نَـاقَتِي ... ومـا قَصَـدَتْ مِـنْ أَهْلِهـا لِسَـوائِكا

٣-أَلَـمَّتْ بِـأَقْوَامٍ فَعَافَـتْ حِيَاضَـهُمْ ... قَلُـوصِي وكـانَ الـشُّرْبُ مِنْهـا بِمَائِكـا

٤-فَلَمّـا أَتَـتْ آطَـامَ (جَـوٍّ) وَأَهْلَـهُ ... أُنِيخَـتْ وأَلْقَـتْ رَحْلَهـا بِفِنائِكـا

٥-وَلَمْ يَسْـعَ فِي الأَقْـوامِ سَـعْيَكَ واحِـدٌ ... وَلَـيْسَ إِنَـاءٌ لِلنَّـدَى كَإِنَائِكـا

٦-سَـمِعْتُ بسَـمْعِ البَـاعِ وَالْـجُودِ وَالنَّـدَى ... فأَدْلَيْـتُ دَلْـوِي فاسْـتَقَتْ بِرِشـائِكا

٧-فَتًـى يَحْمِـلُ الأَعْبـاءَ لَـوْ كـانَ غَيْـرُهُ ... مِـنَ النّـاسِ لَمْ يَـنْهَضْ بِهـا مُتَماسِـكا

٨-وَأَنْـتَ الَّـذي عَـوَّدْتَنِي أَنْ تَرِيشَـنِي ... وَأَنْـتَ الَّـذي آوَيْتَـنِي فِي ظِلالِكـا

٩-فَإِنَّـكَ فِيـمَا بَيْنَـنَا: بِـيَ مُـوزَعٌ ... بِخَـيْرٍ، وإِنِّي مُولَـعٌ بِثَنائِكـا

١٠-وَجَـدْتَ (عَلِيًّـا) بانِيًـا فَوَرِثْتَـهُ ... و(طَلْقًـا) و(شَـيْبانَ) الْـجَوادَ و(مالِكـا)

١١-بُحُـورٌ تَقُـوتُ النّـاسَ فِي كُـلِّ لَزْبَـةٍ ... أَبُـوكَ وَأَعْـمَامٌ هُـمُ هَؤُلائِكـا

١٢-وَمَـا ذاكَ إِلّا أَنَّ كَـفَّيْكَ بِالنَّـدَى ... تَجُـودانِ بِالإِعْطـاءِ قَبْـلَ سُـؤَالِكا

١٣-يَقُولُـونَ: فِي الإِكْـفَاءِ أَكْـبِرُ هَمِّـهِ ... أَلا رُبَّ مِـنْهُمْ مَـنْ يَعِـيشُ بِمَالِكـا

١٤-وَجَـدْتَ انْهِـدامَ ثُلْمَـةٍ فَبَنَيْتَهـا ... فأَنْعَمْـتَ إِذْ أَلْـحَقْتَها بِبِنَائِكـا

١٥-وَرَبَّيْـتَ أَيْـتَامًا وَأَلْـحَقْتَ صِبْـيَةً ... وأَدْرَكْـتَ جَهْـدَ السَّـعْيِ قَبْـلَ عَنائِكـا

١٦-ولَمْ يَسْـعَ فِي العَلْيـاءِ سَـعْيَكَ ماجِـدٌ ... ولا ذُو إِنًـى فِي الحَـيِّ مِثْـلَ قَرائِكـا

١٧-وَفِي كُـلِّ عـامٍ أَنْـتَ جَاشِـمُ غَـزْوَةٍ ... تَشُـدُّ لِأَقْصـاها عَـزِيمَ عَزائِكـا

١٨-مُوَرِّثَـةٍ مَـالًا وَفِي الـحَمْدِ رِفْعَـةً ... لِـمَا ضـاعَ فيهـا مِـنْ قُـرُوءِ نِسـائِكا

١٩-تُخَـبِّرُهُنَّ الطَّـيْرُ عَنْـكَ بِأَوْبَـةٍ ... وَعَـيْنٌ أَقَـرَّتْ نَوْمَهـا بِلِقائِكـا

غَرِيبُ الأَلفاظِ والـمَعاني:

١- الوَهّاب: كَثِيرُ الهِباتِ. والنَّوال: العَطاء.

٢- تَجانَفُ: تَتَنَحَّى، وأَصْلُها (تَتَجانَفُ) فحذَفَ إِحْدَى التّاءَيْنِ تَخْفيفًا؛ ونَسَبَ الفِعْلَ إلى ناقتِه، وإنّما هُو فِعْلُه. وجُلّ اليَمامَة: مُعْظَمها، أَي مُعْظَم أَهْلِها. و(سَواء) بِفَتْحِ السِّين، بِمَعْنَى (سِوَى) بِكَسْرِها.

٣- أَلَـمَّتْ بأَقوامٍ: مَرَّتْ بِهِم سَرِيعَةً. وعافَتْ حِياضَهُمْ: أَنِفَتْ أَنْ تَشْرَبَ مِنْها، لأَنَّها لَيْسَت صَفْوًا. والقَلُوص: الفَتِيَّةُ مِنَ الإِبِل.

٤- الآطامُ: الأَبنِيَةُ العالِيَةُ، والحُصُون. و(جَوّ) قاعِدَةُ اليَمامَةِ. وأُنِيخَتْ: أُبْرِكَتْ. والفِناءُ: السّاحَة.

٥- النَّدى: الكَرَم.

٦- سَمْع الباع: طَوِيل الباع، كِنايَة عن السَّماحةِ والْـجُود؛ والباع: مَسافة ما بين الكَفَّيْن إذا مُدَّتِ اليَدان. والرِّشاء: الحَبْلُ الَّذي تُعَلَّق به الدَّلْوُ.

٧- قَوْلُه: (لو كانَ غَيْرُهُ مِن النّاسِ لم ينهَضْ بها مُتَماسِكا) كِنايَةٌ عَن ثِقَل الأَعْباء.

٨- راشَهُ: أَعطاهُ، وأحسَنَ إِلَيْه.

٩- في الدّيوان: «فِيَّ مُوزَعٌ» تَحْرِيف، والصَّوابُ (بِيَ)؛ لأَنَّه يُقالُ: أُوزِعَ بِهِ، فَهُوَ مُوزَعٌ بِه: مُغْرًى بِهِ، أَيْ بِعَطائِه.

١٠- عَلِيّ: والدُ هَوْذَة. وطَلْق وشَيْبان ومالِكٌ: أَعْمامُه.

١١- تَقُوتُ: تُطْعِم. واللَّزْبَةُ: السَّنَةُ الشَّديدةُ الطَّوِيلَةُ على النّاس.

١٢- النَّدى: العَطاء.

١٣- يُروَى: «في الأَكْفاءِ»، والأعشى يَرُدُّ على بعض خصوم الـممدوح الَّذين يَقُولون: (هذا الرَّجُلُ يَكْتَفِي بِما لَدَيْهِ) بحَسَبِ رِواية (في الإِكفاء)، أو يَقُولُونَ: (إِنَّهُ يَظْلِمُ أَكْفاءَهُ الـمُماثِلِينَ لَهُ مِنَ النّاسِ) بِحَسَبِ رِوايَة (في الأَكْفاء).

١٤- الثُّلْمَة: الكَسْرُ في البِناءِ ونَحْوِه؛ يقول: وجَدْتَ أَمْرًا ناقِصًا فأَتْمَمْتَهُ؛ أَو أراد بالثُّلْمةِ حاجَةَ الأَعْشى وفاقَتَه.

١٥- العَناء: التَّعَب.

١٦- الإِنَى: العَطاء والـمَجْد والشَّرَف. و(القَراءُ) بفتح القافِ بِمَعْنى (القِرَى) بِكَسْرِها، وهو إكرامُه وإِحْسَانُهُ إِلَيْه.

١٧- جاشِمُ غَزْوَةٍ: تتجَشَّمُها؛ أي تَقْصِدُها وتَحْمِلُ مَشاقَّها. والعَزاءُ: الصَّبْرُ. وأراد بقَولِه: (عَزِيم عَزائِكا) ثَبات صَبْرِه وجِدَّهُ في توجُّهِه إلى الغَزْو.

١٨- القُرُوءُ: جَمْعُ القُرْءِ، مِن ألفاظِ الأَضْداد، وهو هنا بِمَعْنَى الطُّهْرِ؛ وفي الشَّطْرِ الثّاني كِنايَةٌ عنِ الْجِماعِ.

١٩- الأَوْبَةُ: الرَّجْعةُ؛ يقول: حِينَ يَرَى نِساؤُهُ الطَّيْرَ مِن بَعِيدٍ تَطِيرُ جَماعاتٍ يَعْلَمْنَ أَنَّها مُرافِقَةٌ لِجَيْشِهِ العائِدِ ظافِرًا.

رابِعًا: دوافع المديح:

إنَّ ما سبق مِن كلامِ ابنِ رشيقٍ يتضمَّنُ إشارةً إلى **ثلاثَةِ دَوافِعَ** تَدْعُو الشُّعراءَ إلى المديح، وقد رَأى **الدَّافعَيْنِ الأَوَّلَيْنِ** الأسبقَ زَمَنًا هما **إعجابُ الشّاعِرِ** بالمَمْدُوح **ومُكافَأَتُهُ ومُجازاتُهُ** على يَدٍ ومعروفٍ قدَّمه إليه ولا يستطيع أداءَ حقِّها إلّا بالشُّكرِ؛ ورأى **الدّافعَ الثّالِثَ** المتأخِّرَ زَمَنًا هو **التكسّبُ** بِمَدْحِ الملوكِ وأشباهِهم رَغْبَةً في العطاءِ، حتّى جعلَ الأعشى مِن المدْحِ تِجارَةً يطوّفُ بها في البلاد.

وقد أنشَدَ شِعْرًا لامرِئِ القَيْسِ -وهو الـمِلِكُ- يمدَحُ فيه الـمعَلَّى بنَ ثَعْلَبَةَ مِن بَنِي تَيْمٍ الطَّائِيِّينَ حين أَلْـجَؤُوه إليهم وحَمَوْهُ مِنَ الـمنذرِ بنِ ماءِ السَّماءِ شُكرًا منه لهم، حتّى قال:

أَقَـرَّ حَشـا امْـرِئِ القَـيْسِ بـنِ حُجْـرٍ بَنُـو تَـيْمٍ مَصـابِيحُ الظَّـلامِ
كَـأَنّي إِذْ نَزَلْـتُ عَـلى الـمعَلَّى نَزَلْـتُ عَـلى البَـواذِخِ مِـنْ شِـمامِ
فـما مَلِـكُ العِـراقِ عـلى الـمعَلّى بِمُقْتَـدِرٍ ولا مَلِـكُ الشَّـآمِ

فكأنَّ امرأَ القيسِ كانَ في ظُلْمَةِ ليلٍ رابضٍ على صَدْرِهِ، كذلكَ اللَّيْلِ الَّذي وصفَهُ في مُعَلَّقَتِه، حتّى كشفَتْ تلكَ الظُّلْمَةَ والغُمَّةَ وُجُوهُ بَنِي تَيْمٍ ففَرَّجَتْ عنه، وكانَ في اضطرابٍ وخوفٍ شديدَيْنِ يَجِيشانِ في صَدْرِهِ مثلَ جَيَشَانِ فَرَسِهِ الَّذي وصفَهُ في مُعَلَّقَتِه، حتّى سَكَّنَ مِنْ جَأْشِهِ حُلُولُهُ في أَكْنافِ هؤلاءِ القوم، فأَحَسَّ بأَنّهُ صارَ في مكانٍ باذِخٍ مَنِيعٍ عَزيزٍ لا يَقْدِرُ عليهِ مُلوكُ الأَرْضِ جَمِيعًا.

ومِنْ ذلك أيضًا مَدْحُه جارِيَةَ بْنَ مُرٍّ بنِ حَنْبَلٍ وقومِه بَنِي ثُعَلَ الطَّائِيِّينَ، وقد أَكْرُموهُ وأَجارُوه:

أَبَـتْ (أَجَـأٌ) أَنْ تُسْـلِمَ اليَـوْمَ جارَهـا فَمَـنْ شـاءَ فَلْيَـنْهَضْ لَهـا مِـنْ مُقَاتِـلِ
تَبِيـــتُ لَبُـــوني بالقُرَيَّـــةِ أُمَّنًـــا وأَسْرَحُهَـا غِبًّـا بأَكْنـافِ (حائـلِ)

بَنُــو ثُعَــلٍ جِيرانُهــا وحُماتُهــا وتُمْنَــعُ مِــنْ رُمــاةِ سَــعْدٍ ونائِــلِ

فهو يَذْكُرُ لهم مَعْرُوفَهُم في جوارِهم له، حتّى كانَ فيهم آمِنًا على نفسِهِ ومالِهِ وإبِلِه الّتي صارَتْ تَبِيتُ آمِنَةً وتَرْعَى آمِنَةً، لا تَخْشَى عُدوانَ أَحَدٍ عليها، كما لا يَخْشَى صاحِبُها وُصولَ أَحَدٍ مِمَّنْ يطلُبُه إليهِ؛ وما ذاكَ إلّا أنَّها وصاحبَها في جِوارِ بَنِي ثُعَلَ وحِمايَتِهم.

وقد يَمْدَحُ الشّاعِرُ إعجابًا وشُكْرًا على مَعْرُوفٍ لم يكن معروفًا نالَهُ هو، وإنّما هُوَ معروفٌ عامٌّ، كالَّذي كانَ مِنْ مَديحِ زهيرِ بنِ أَبي سُلْمى لِهَرِمِ بنِ سِنانٍ والحارِثِ بنِ عَوْفٍ المُرِّيَّيْنِ، إذ سعى هذانِ الرَّجُلانِ في الإصلاحِ بينَ عَبْسٍ وذُبْيانَ في حربِ داحِسٍ والغَبْراءِ، وتَكَفَّلا بِحَمْلِ عِبْءِ الدِّيَاتِ وهيَ ثلاثةُ آلافِ بَعِيرٍ يَدْفَعانِها مِنْ مالِهِما الخاصِّ مُنَجَّمَةً على ثلاثِ سَنَواتٍ، حَقْنًا للدِّماءِ وإصلاحًا بينَ القَبِيلَتَيْنِ وقد كادَتِ الحربُ تُفْنِيهِما لِكَثْرَةِ القَتْلى، فقالَ زهيرٌ يمدَحُهما إعجابًا وتقديرًا:

فأَقْسَمْتُ بالبَيْتِ الَّذي طافَ حَوْلَهُ رِجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ
يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما على كُلِّ حالٍ مِنْ سَحِيلٍ ومُبْرَمِ
تَدارَكْتُما عَبْسًا وذُبْيانَ بَعْدَما تَفانَوْا و دَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ
فأَصْبَحْتُما مِنْها على خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فيها مِنْ عُقُوقٍ ومَأْثَمِ

عَظِيمَـــيْنِ فِي عُلْيَـــا مَعَـــدٍّ وغيرِهـــا ومَـنْ يَسْـتَبِحْ كَنْـزًا مِـنَ الـمجْدِ يَعْظُـمِ
تُعَفَّـــى الكُلُـــومُ بِـــالمِئِينَ فأَصْـــبَحَتْ يُنَجِّمُهـــا مَـــنْ لَـــيْسَ فيهـــا بِمُجْـــرِمِ
يُنَجِّمُهـــا قَـــوْمٌ لِقَـــوْمٍ غَرَامـــةً ولَـــمْ يُهَرِيقُـــوا بَيْـــنَهُمْ مِـــلْءَ مِحْجَـــمِ

فهو يَرى أنَّ ما فَعَلاهُ مِن إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ يُعَدُّ كَنْزًا مِنَ الـمجدِ والشَّرَفِ بارِزًا لِلنّاسِ ولَكِنْ قَلَّ مَنْ يَسْتَبِيحُهُ ويَحْصُلُ عليه كما فَعَلَ هذانِ الرَّجُلان، بما بَذَلا مِن مالِهِما، مَعَ أنَّهما لَمْ يُلَوِّثا أَيْدِيَهُما ولا سلاحَهُما بشَيْءٍ مِن تلكَ الدِّماءِ الّتي جَرَتْ.

وأَمّا الـمدحُ للتَّكَسُّبِ فأبرزُ ما ظهَرَ عندَ النّابغةِ والأعشى، وإن كانَ غيرُهما قد تكسّب، على أنَّ النّابغةَ قد يُلْتَمَسُ لَهُ عُذْرٌ في أنَّه كانَ كالسَّفِيرِ لِقَوْمِهِ لدى الـملوكِ، فهو حريصٌ على مَصْلَحَتِهم، غيرَ أنّ ما لا عُذْرَ لَهُ فيه هُوَ إِذْلالُهُ نفسَهُ وإراقَتُه ماءَ وَجْهِه أمامَ النُّعمانِ بنِ الـمنذِرِ حتّى جعلَ مِن نفسِه عَبْدًا أَوْ بَعِيرًا أَجْرَبَ يَتَحاماهُ النّاس، وذلك في اعتذاريّاتِهِ الّتي خَلَطَ فيها الاعتذارَ بالمديح، ويُؤكِّدُ تَكَسُّبَهُ إِلْحاحُهُ في اعتذاريّاتِهِ على ذِكْرِ جُودِ النُّعمانَ عليه ومبالغَتُهُ في وصفِ ذلك الجُود؛ ولكنَّ استِنْكارَ

تَكَسُّبِهِ لا يقلِّل مِنْ قيمةِ شعرِه الفنيّةِ وتحليقِهِ في التّصويرِ الفَنِّيِّ وإبداعِهِ في معانيهِ وكَشْفِهِ عن مكنونِ نفسِه؛ كقولِهِ[1]:

أَتـانِي -أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ!- أَنَّـكَ لُـمْتَنِي ... وتلْـكَ الَّتـي أَهْـتَمُّ مِنْهـا وأَنْصَـبُ
فَبِـتُّ كـأَنَّ العائِـداتِ فَرَشْـنَنِي ... هَرَاسًـا بِـهِ يُعْـلَى فِـراشي ويُقْشَـبُ

ثُمَّ قال بعدَ اعتذارِه[2]:

وإِنَّـكَ شَـمْسٌ والمُلُـوكُ كَواكِـبٌ ... إِذا طَلَعَـتْ لَمْ يَبْـدُ مِـنْهُنَّ كَوْكَـبُ
فَـلا تَتْرُكَنِّـي بالوَعِيـدِ كـأَنَّني ... إِلى النَّـاسِ مَطْـلِيٌّ بِـهِ القَـارُ أَجْـرَبُ
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْطـاكَ سُـورَةً ... تَـرى كُـلَّ مَلْـكٍ دُونَهـا يَتَذَبْـذَبُ
ولَسْـتَ بِمُسْـتَبْقٍ أَخًـا لا تَلُمُّـهُ ... عَـلى شَـعَثٍ، أَيُّ الرِّجـالِ الـمهَذَّبُ؟
فـإِنْ أَكُ مَظْلُومًـا فعَبْـدًا ظَلَمْتَـهُ ... وإِنْ تَـكُ ذا عُتْبَـى فَمِثْلُـكَ يُعْتِـبُ

فليسَ خافيًا ما في هذه الأبياتِ وغيرها من اعتذاريّاته مِن قدرةٍ فائقةٍ على التّحليقِ في الخيالِ واصطيادِ الصُّوَرِ الطَّريفةِ والـمعاني البَديعة.

وإذا كان النّابغةُ قد فَعلَ ذلك بسببِ غَضَبِ النّعمان عليه، فاجتمعَ في نفسِهِ الخوفُ وحُبُّ الـمالِ والحنينُ إلى العطاءِ فكَثُرَ في شعرِهِ الاعتذار،

(١) الهَراسُ: شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْك. ويُقْشَبُ: يُجَدَّدُ.

(٢) السُّورَة: الـمنْزِلَةُ. والعُتْبَى: الرِّضا؛ ويُعْتِبُ: يُعْطِي الرِّضا.

فإنَّ الأعشى لم يُعانِ الخَوْفَ، بل عانَى عاهَةً في بَصَرِهِ رافقَتْهَا شَهْوَةٌ عارِمَةٌ لِلْخَمْرِ والنِّساءِ، وهُما لا يُنالانِ إلّا بِكَثْرَةِ المالِ، فكانَ اكْتِسابُهُ لَهُ بالشّعرِ، ولهذا كَثُرَتْ في شعرِه ظاهِرَةُ الارتحالِ لأجْلِ المديحِ وكَسْبِ المال؛ وأَفْصَحَ عن ذلك بقولِه:

وطَوَّفْتُ لِلشِّعْرِ آفاقَهُ عُمَانَ وحِمْصَ وأُورِيشَلِمْ
أَتَيْتُ النِّجاشِيَّ في أَرْضِهِ وأَرْضَ النَّبِيطِ وأَرْضَ العَجَمْ

فَهُوَ سَفِيرُ نفسِهِ وشَهَواتِهَا الّتي يُصَوِّرُها في شعره، ولهذا كانَ يُلِحُّ في مدائحِهِ على كَرَمِ الممدوحِ وعطائِهِ الَّذي لا يُحَدّ، في ضَرْبٍ مِنَ الاسْتِجْداءِ، ولكنَّ ذلك أيضًا لا يُقَلِّلُ مِن قيمةِ شعرِه الفَنِّيَّةِ وبراعَتِهِ، ولَيْسَ نَقْدُ الشِّعْرِ مُحاكَمَةً أَخْلاقيّةً نُدِينُ فيها ما لا يُعْجِبُنا مِن أخلاقِ الشُّعراءِ ومُعْتَقَدِهم، فنَنْفِي الفَنَّ عنه وإنْ كانَ راقيًا جَمِيلًا، أو نُثْنِي فيها على ما يَرُوقُنَا مِن أخلاقِ الشُّعراءِ ومُعْتَقَدِهم، فنجعل شِعْرَهُمْ مُتَمَيِّزًا وإن كان باردًا هَزِيلًا؛ ولكنّنا في الوقْتِ نَفْسِه نُؤْمِنُ بأَنَّ الشِّعْرَ فنٌّ جَمِيلٌ لَهُ رِسالةٌ يَنْبَغِي أَلَّا يُرَذِّلَها الشُّعَراءُ.

خامِسًا: قيمة شعر المديح فنيًّا واجتماعيًّا:

لا شكَّ في أنّ مِنْ رِسالةِ الشِّعر ما نبّه عليهِ الأوَّلُون، فقد قالَ المظَفَّرُ بنُ الفَضْلِ العَلَوِيُّ في كتابه (نَضْرَة الإِغْرِيض): «قالَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ رضي اللهُ عنه: تحفّظوا الأَشْعارَ وطالِعوا الأخبار، فإنّ الشِّعرَ يدعو إِلى مَكارِمِ الأَخْلاقِ ويُعَلِّمُ مَحاسِنَ الأعمالِ، ويَبْعَثُ على جَميلِ الأفعالِ، ويَفْتُقُ الفِطْنَةَ، ويَشْحَذُ القَرِيحَةَ، ويَحْدُو على ابْتِناءِ المناقِبِ وادِّخارِ المكارمِ، ويَنْهَى عنِ الأخلاقِ الدَّنِيئَةِ، ويَزْجُرُ عَنْ مُواقَعَةِ الرِّيَبِ، ويَحُضُّ على مَعالِي الرُّتَبِ؛ وقالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنه: عَلِّمُوا أَوْلادَكُمُ الشِّعْرَ، فإنّهُ يُعَلِّمُهُمْ مَكارِمَ الأخلاقِ؛ وأَوْصَى الرَّشِيدُ الكِسائِيَّ بالأَمِينِ والمأْمُونِ، فكانَ مِنْ جُمْلَةِ وَصِيَّتِه: وَرِّهِما مِنَ الشِّعْرِ، فإنّهُ أَوْفَى أَدَبٍ، يَحُضُّ عَلى مَعالِي الرُّتَبِ».

ومن هنا كان في شعرِ المديحِ تقديمٌ للمِثالِ الحَيِّ للفضيلةِ في الممدوحين، تَحْرِيضًا على تقليدِهم في جليلِ الأعمالِ الّتي يُسْبِغُها عليهم الشُّعراء، وتَحْفِيزًا لِلْهِمَمِ لبلوغِ ذلك المثالِ الَّذي يُصَوِّرُه الشُّعراءُ للرَّجُلِ الكامِلِ الفاضِلِ في عُرْفِ عصرِهِم، وهي المهمّةُ الاجتماعيَّةُ الّتي حملَها

الشِّعْرُ الرَّفِيعُ على عاتقِهِ على مرّ العصور؛ فإن مكارمَ الأخلاقِ والفضائل الّتي يُعَدِّدُها الشُّعراءُ مُحَبَّبَةٌ إلى نفوسِ النّاس الأَسْوِياء، بِغَضِّ النّظَرِ عنِ الدّافع الَّذي يَحْدُو بالشَّاعِرِ إلى المديحِ، سواءٌ أكان الإعجابَ أو الحبَّ أو الشُّكْرَ أو الطَّمَع.

وإذا وَجَدْنا في شعر المديح وغيرِه من أَغْراضِ الشِّعرِ مُبالَغَةً فذلكَ لأنَّ الشَّاعِرَ إنّما يقولُ شعرًا، وسبيلُ الشِّعر هيَ سبيلُ كلِّ فَنٍّ في إعمالِ الخيالِ لإبرازِ الجوانبِ المشْرِقَةِ مِنَ اللَّوْحَةِ الّتي يَرْسُمُها، سَواءٌ أكان ذلك بالكلِمَةِ أو الموسيقا أو اللَّوْن، لا يَعْنُونَ بذلك (الكَذِبَ) بالمعنى الأخلاقيّ، بل بمعنى مُخالَفَةِ الواقعِ والمبالغةِ فيه؛ وعندئذٍ نقدّرُ إعجابَنَا بقولِ زهير، ودهشتَنَا من تصويرِه حينَ يجعَلُ صاحبَهُ أشجَعَ مِنَ الأسد:

ولَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسامَةَ إِذْ دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ

ونحو هذا ما سبَقَ في مديحِ النّابغةِ واعتذارِه وتصويرِه لمكانةِ النُّعمانِ بين الملوكِ ولشدّةِ كرمِه، وغيرُ ذلك من المبالغاتِ كقولِه في وصف كَرَمِ النُّعمان[1]:

فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَهُ ... تَرْمِي أَواذِيُّهُ العِبْرَينِ بالزَّبَدِ
يُمِدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيهِ رُكامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ والخَضَدِ
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الملّاحُ مُعْتَصِمًا ... بالخَيْزُرانَةِ بَعْدَ الأَيْنِ والنَّجَدِ
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نافِلَةٍ ... ولا يَحُولُ عَطاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ

على أنَّ الميل نحوَ الواقعيّةِ الفَنِّيّةِ كان الغالِبَ على شعرِهم، وإنما تأتي أمثالُ هذه المبالغاتِ لتكونَ كالومَضَاتِ الّتي تُنِيْرُ جَوَّ القصيدةِ ولا تُعْشِي الأَبْصارَ بِكَثْرَتِها؛ ولعلَّ في قول زهيرٍ وهو يمدحُ قومَ هَرِمِ بنِ سنانٍ والحارثِ بنِ عَوْفٍ المُرِّيَّيْنِ مثالًا على ذلك[2]:

---

(١) الأَواذِيُّ: الأَمواج. ومُتْرَع: مَمْلُوء. ولَجِب: لَهُ صَوتٌ شَدِيد. واليَنْبُوتُ: شَجَرٌ. والخَضَدُ: المحَطَّمُ مِنَ الشَّجَر. والأَيْنُ: التَّعَبُ. والنَّجَدُ: الكَرْبُ. والسَّيْبُ: العَطاءُ. والنّافِلَةُ: الزِّيادَةُ.

(٢) تُهِرُّ النّاسَ: تُخِيفُهُم. والحَجْرَةُ: السَّنَةُ الشَّدِيدَةُ البَرْد. وقَطِينًا بِها: ساكِنِينَ بها. ويُسْتَخْبَلُوا: يُسْأَلُوا شَيْئًا بِعَيْنِه. وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا: إنْ يُقامِرُوا يَخْتَارُوا سِمانَ الإِبِل. والحامِلُ: حامِلُ الدِّياتِ. والخَطِّيّ: الرِّماحُ المنْسُوبَةُ إِلى (الخَطِّ) على الخَلِيجِ

إذا فَزِعُــوا طــارُوا إِلى مُسْــتَغِيثِهِمْ ... طِــوالَ الرِّمــاحِ لا ضِــعافٌ ولا عُــزْلُ

بِخَيْــلٍ عَلَيْهــا جِنَّــةٌ عَبْقَرِيَّـــةٌ ... جَــدِيرُونَ يَوْمًــا أَنْ يَنــالُوا فَيَسْــتَعْلُوا

وإنْ يُقْتَلُــوا فَيُشْــتَفَى بِــدِمائِهِمْ ... وكــانوا قَــدِيمًا مِــنْ مَنايــاهُمُ القَتْــلُ

عَلَيْهــا أُسُــودٌ ضــارِياتٌ، لَبُوسُــهُمْ ... سَــوابِغُ بِــيضٌ لا تُخَرِّقُهــا النَّبْــلُ

إذا لَقِحَــتْ حَــرْبٌ عَــوانٌ مُــضِرَّةٌ ... ضَرُوسٌ تُهِــرُّ النّــاسَ أَنْيابُهَــا عُصْــلُ

قُضــاعِيَّةٌ أَوْ أُخْتُهــا مُــضَرِيَّةٌ ... يُحَـرَّقُ في حافَاتِهـا الــحَطَبُ الْـجَزْلُ

هُــمُ خَــيْرُ حَــيٍّ مِــنْ مَعَــدٍّ عَلِمْــتُهُمْ ... لَــهُمْ نائِــلٌ في قَــوْمِهِمْ ولَــهُمْ فَضْــلُ

إذا السَّــنَةُ الشَّــهْباءُ بالنّــاس أَجْحَفَــتْ ... ونــالَ كِــرامَ الــمالِ في الحَجْــرَةِ الأَكْــلُ

رَأَيْــتَ ذَوِي الحاجَــاتِ حَــوْلَ بُيُــوتِهِمْ ... قَطِينًــا بِهــا، حَتّــى إذا نَبَــتَ البَقْــلُ

هُنالِــكَ إنْ يُسْــتَخْبَلُوا الــمالَ يُخْبِلُــوا ... وَإِنْ يُسْــأَلُوا يُعْطُــوا، وإِنْ يَــيْسِرُوا يُغْلُــوا

وفِــيهِمْ مَقامــاتٌ حِسَــانٌ وُجُــوهُهُمْ ... وأَنْدِيَــةٌ يَنْتابُهَــا القَــوْلُ والفِعْــلُ

عَــلى مُكْثِــرِيهِمْ رِزْقُ مَــنْ يَعْــتَرِيهِمُ ... وعِنْــدَ الــمُقِلِّينَ السَّــماحَةُ والبَــذْلُ

وَإِنْ جِئْــتَهُمْ أَلْفَيْــتَ حَــوْلَ بُيُــوتِهِمْ ... مَجــالِسَ قَــدْ يُشْــفَى بِأَحْلامِهِـا الْـجَهْلُ

وَإِنْ قــامَ فــيهِمْ حامِــلٌ قــالَ قاعِــدٌ ... رَشَــدْتَ، فَــلا غُــرْمٌ عَلَيْــكَ ولا خَــذْلُ

ومــا يَــكُ مِــنْ خَــيْرٍ أَتَــوْهُ فــإِنَّما ... تَوارَثَــهُ آبــاءُ آبــائِهِمْ قَبْــلُ

وهــلْ يُنْبِــتُ الــخَطِّيَّ إِلّا وَشِــيجُهُ ... وتُغْــرَسُ إِلّا في مَنابِتِهــا النَّخْــلُ

العَرَبِيّ، وتُعْرَفُ اليَوْمَ بِاسْمِ (القَطِيف). والوَشِيجُ: شجَرُ الرِّماح يَنْبُتُ مُشْتَبِكًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

وهي أبيات -كما يَظْهَرُ- اجتمعَتْ فيها مَعانٍ كثيرةٌ مِنْ مَعاني المديحِ الّتي ذكرَها ابن رشيقٍ، فقد ذَكَرَ الشّجاعةَ والنَّجْدَةَ والْجُرْأَةَ؛ وذكَرَ السَّخاءَ والمُرُوءَةَ والكَرَمَ، وهي من العَدْل؛ وذكَرَ الأَحْلامَ وتَجاوُزَ الجَهْلِ وحُسْنَ القَوْلَ والفِعْلِ وهو مِنِ العَقْلِ؛ وذكَرَ احتِمالَ الدِّيَاتِ والتَّعاضُدَ على فِعْلِ الخَيْرِ في ذلك والمُؤَازَرَةَ عَلَيْهِ وتَلْبِيَةَ مَنْ يَقْصِدُهُمْ، وهِيَ مِنَ العِفَّةِ[1].

ولا شكّ في أنّها مَعانٍ راقِيَةٌ حينَ تنتَشِرُ في المجتمع، وما إِلْحاحُ الشّاعرِ على إبرازِها وتَصْوِيرِها تَصْوِيرًا جَميلًا إلّا دَعْوَةٌ إلى امتثالِها والاقتداءِ بها.

(١) في البَيْتَيْنِ الأَوَّل والثّاني: الشَّجاعَةُ والنَّجْدَةُ والاستعداد للحرب وسُرْعَةُ النَّجدةِ والغَلَبَة. وفي الثّالث حَتّى السّادس: شَرَفُهُم وجُرْأَتُهم وإقدامُهُم وهَيْبَتُهم وشِدَّتُهم في أنفُسِهِم وعُدَّتِهم. وفي السّابع حَتَى العاشِر: كَرَمُهُم الفَيّاض في أنفُسِهِم وغَيْرِهم، في الشّدّة والخِصْب. وفي الحادِي عشر حتّى السّادِسَ عَشَر: جَمالُ وجُوهِهِم وأقوالِهم وأفعالِهم، وعُمُومُ سَماحَتِهِم وفَضْلِهِم بين فقرائِهِم وأغنِيائِهِم، وأحْلامهم الّتي يَشْفون بها جَهْلَ الجاهِل، وتَعاونهم وتآزُرهم وتعاضُدهم وتآلُفهم، وفضْلُ آبائِهِم وقِدَم أحسابِهم ومَجْدِهِم وحِفْظهم له.

سادسًا: ظَواهِرُ فَنِّيَّةٌ في شِعْرِ الـمدِيحِ:

إِنَّ أوّلَ ما يَلْفِتُ النَّظَرَ في شعرِ الـمديحِ أنّه **يَأْتِي على الأغلَبِ في قَصائدَ مُكْتَمِلَةٍ فنّيًّا**، فيها الـمقدّماتُ الفنيّةُ مِن وقوفٍ على الأَطلالِ وغَزَلٍ ورِحْلَةِ الظّعائن ورِحْلَةِ الشّاعرِ إلى الـممدوح، وهيَ الـمثالُ الأَكْمَلُ للقصيدةِ الْـجَاهليّة؛ وكأنّما كانَ الكَمالُ الَّذي يَبْغِيهِ الشّاعرُ في وصفِ الـممدوحِ يَجْعَلُهُ لا يُقَدِّمُ قصيدتَهُ إلّا على نحوٍ مِنَ الكَمالِ عَرَفُوهِ للشِّعْرِ بِمُقَدِّماتِهِ ورِحْلَتِهِ.

وعندَ النُّقّادِ القُدَماءِ تَفسيرٌ نَفْسِيٌّ اجتماعيٌّ فَنّيٌّ لِلْبَدْءِ بهذه الـمقدّمات، ذلك التَّفسيرُ الَّذي أَوْرَدَهُ ابنُ قُتَيْبَةَ في مُقدّمةِ كتابِه (الشِّعر والشُّعراء) نَقْلًا عَنْ بعضِ أهلِ الأدَبِ، وهوَ أنَّ ابتداءَ الشّاعرِ بذِكْرِ الدِّيارِ وما يتعلَّقُ بذلكَ لِيَجْعَلَهُ سَبَبًا لِذِكْرِ أَهْلِها الظّاعِنينَ عنها وإظهارِ الوَجْدِ وأَلَمِ الفِراقِ والشَّوْقِ، لِيُمِيلَ نحوَهُ القلوبَ ويَسْتَدْعِي إِصغاءَ الأسماعِ إليه، لِقُرْبِ التَّشْبيبِ مِنَ النُّفوس، ثُمَّ يَرْتَحِلُ في شعرِهِ ويَشْكُو النَّصَبَ والسَّهَرَ وحَرَّ الهَجِيرِ، ويَذْكُرُ إِنْضَاءَ الرّاحِلَةِ، فإذا عَلِمَ أَنَّه قد أَوْجَبَ عَلى مَمْدُوحِهِ حَقَّ الرَّجاءِ وذِمامَ التَّأْمِيلِ بدأَ بالـمديح، فَبَعَثَهُ على الـمكافأَةِ، وهَزَّهُ

للسَّماح؛ وهذا التّفسيرُ أَصْدَقُ ما يكون على مقدّماتِ قصيدةِ المديح، ولا سِيَّما عندَ الأَعشى وأضرابِه.

ومنَ الظّواهرِ الفنيّةِ في قصائدِ المديح الجاهليّة أنّ **مُعظَمَها منظومٌ على البحورِ الْجَليلةِ**، كالطّويل والبسيطِ والكامل، وحينما يَقترِنُ المديحُ بشَيْءٍ مِن الارتياحِ والنَّشْوَةِ يكونُ للبحرِ الوافرِ نَصِيبٌ من ذلك؛ على أنَّ هذه البحورَ كَثُرَ النَّظْمُ عليها في معظمِ أَغراضِ الشِّعرِ الجاهليّ.

وممّا يُلْحَظُ أنَّ هذا الشّعر بمعانيه وصُوَرِه وألفاظِه **ابنُ بيئتِهِ العربيّة**، وهي ظاهرةٌ عامّةٌ في الشّعرِ الجاهليّ، وليسَ بخارجٍ على هذا ما فيه مِن تصويرٍ لبعضِ المظاهِرِ الحَضَرِيَّةِ في قُصورِ الملوك وأشباهِهِم في الحيرةِ والشَّامِ ونَجْرانَ وغيرها في شعرِ النّابغةِ وحَسّانَ والأَعْشَى، فإنَّ في العرب الحَضَرَ والبَدْوَ، ولكلِّ بيئةٍ مَعِيشَتُها وأَدواتُها؛ على أنَّ الغالِبَ أنْ يَنْصَرِفَ الشُّعراءُ إلى المعاني الأخلاقيّة والعقليّة والجسديّة الّتي تُصوِّرُ الرَّجُلَ الكامِلَ الرُّجولة.

ومن ذلك مَيْلُ الشُّعراءِ إلى **الصِّدْقِ الفنّيِّ** وما يَقْتَضِيه مِن تصويرٍ ومُبالَغة، وانحرافُهم عَنِ الشَّطَطِ في الخَيالِ المُفْضِي إلى فَسادِ المعاني

بالـمبالَغاتِ الـمُفْرِطَةِ، وأدّى ذلك إلى ظاهرةٍ عامّةٍ في الشّعرِ الجاهليّ هي وضوحُ الـمعاني، ولكنّه ليس وُضوحًا يُفقِدُ الشّعرَ بَهْجَتَهُ وبَرِيقَهُ وجمالَه، بل وضوحًا يَسْمَحُ للنّاقدِ بالنّظر إليه مِن وجوهٍ مختلفةٍ في ألفاظِه وتراكيبه وصُوَرِه ومعانيه؛ وتَعْلُو هذا الشِّعْرَ غِشاوَةٌ رقيقةٌ مِن غَرابةِ بعضِ الألفاظِ عنّا نحن أبناءَ العصورِ الـمتأخِّرة، ولكنّها كتلك الغِشاوةِ الّتي تَعْلُو الآثارَ العظيمةَ مِن غُبارِ السِّنينَ الَّذي يَزيدُها جَمالًا ويَدُلُّ على عِتْقِها، ويَزيدُ مِن هَيْبَتِها، ويَدعو الخبيرَ إلى الكشفِ عمّا تُكِنُّه مِن مُقَوِّماتِ بقائِها وخُلودِها على مَرِّ العصور.

ومن الظّواهرِ الـمعنويّة أنَّ شعرَ الـمديح **انصرفَ معظمُه إلى القِيَمِ الاجتماعيّة** الّتي كانت تستهوي الـمجتمعَ وتَهُزُّ شعورَ النّاسِ ولا سيّما الشّعراءِ حينما تَبْرُزُ في إنسانٍ ما، فهُمْ يُعَبِّرُون عنها بأشعارٍ خالدةٍ لا تَبْلَى؛ ومِنْ ثَمّ قالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رضيَ اللهُ عنه لبعضِ وَلَدِ زُهَيْرٍ: «ما فَعَلَتِ الـحُلَلُ الّتي كَساها هَرِمٌ أَباكَ؟ قال: أَبْلَاها الدَّهْرُ؛ فقال عُمَرُ: لكنَّ الـحُلَلَ الّتي كَساها أَبُوكَ هَرِمًا لَمْ يُبْلِها الدَّهْر!».

وآخِرُ ما يُلْحَظُ أَنَّ شعرَ المديحِ **ليس بالكثيرِ عندَ الجاهليّينَ** إذا ما قِيسَ بأَغْراضِ الشِّعر الأُخرى، إذا نَظَرْنا إليه نَظْرَةً عامّةً، وإنّما كَثُرَ في أشعارِ بعضِ الشّعراءِ في أَواخِرِ العصر الجاهليّ، كزُهَيْرٍ والأعشى والنّابغةِ وحَسّان، لأسبابٍ اجتماعيّة واقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ مختلفة.

القسم الثّالث

فنون النّثْرِ الجاهِلِيّ

تمهيدٌ في النّثر الجاهليّ:

ينقسم الكلام الَّذي وصل إلينا منسوبًا إلى الجاهليّين إلى شعرٍ ونثر:

فالشِّعر في الأصل اللُّغَويّ مأخوذٌ من قولهم: شَعَر إذا فَطِنَ وعَلِمَ، وفي الاصطلاح: هو الكلام الموزون المقفّى من أوّله إلى آخره، والَّذي له معنًى شعريّ وأسلوب شعريّ وقصَدَ إليه الشّاعرُ قَصْدًا؛ لأنّ الشّاعرَ عِلِمَ ذلك كلَّه وفطن له.

والنّثر مأخوذٌ في الأصل اللُّغَويّ مِنْ نَثْرِ الشّيء، وهو رَمْيُهُ مُتَفَرِّقًا؛ تقول: نثرتُ الحبَّ ونحوَه إذا رميتَهُ متفرّقًا؛ فهذا الأصلُ اللُّغَويّ يدلُّ على أنّ النّثرَ هُوَ الكلام الَّذي يتكلّم به النّاسُ عامّةً خاليًا من الوزنِ والنّظامِ الموسيقيّ، ولكنْ عند الحديث عن النّثر في الأدب يُعْنَي النّثر الَّذي تعمّد صاحبُه تجويدَه وبذل فيه جُهدًا من حيثُ صياغَتُهُ ولُغَتُهُ ووسائلُه الفنّيّةُ للتّأثير في السّامعين.

ويمكنُ تصنيفُ ما وصل إلَيْنَا عن الجاهليّين من هذا النّثر في أنواع عدَّة: الخطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال، وهنالك الرسائل والعُهود والأحلاف.

ولا بُدَّ قبلَ الوقوفِ عند أنواع النّثر الجاهليّ من التّنبيه على أمرَيْنِ تَناوَلَهُما بعضُ دارسي النّثر الجاهليّ: الأوّل حول أسبقيّة الشّعر والنّثر، إذ يرى بعضُهم أنّ النّثر أسبق، ويخالفهم آخرون، وكلٌّ يأتي بحُجَجٍ يتخيّل صِحَّتَها يُؤَيِّدُ بها رأيَهُ وينقض رأي الآخر، وهي قضيّة لا تعدو أن تكونَ ضربًا من الجِدالِ الَّذي لا فائدة تُرْتَجى من ورائه؛ فليس يُهِمُّ كثيرًا أن يكون النّثر أسبق أو الشّعر، بلِ الـمُهِمُّ هو هذا الَّذي وصل إلينا من الشّعر والنّثر وكلّ ما يتعلّق بهما؛ ولذلك نضربُ صَفْحًا عن هذا الأمر.

والأمر الثّاني هو توثيق النّثر الجاهليّ، إذ لا يكاد مُعْظَمُ دارسي الأدب الجاهليّ يثقونَ إلّا بالقليل النّادرِ من هذا النّثر، وليس لهم حُجَّةٌ في ذلك إلّا أنّ هذا النّثر لم يصل إلينا مُدوّنًا من الجاهليّة، وإنّما دُوِّنَ بعدَ زَمَن، وأنّ حِفظ النّثر ليس سهلًا كحفظ الشّعر، ثمّ يَعْطِفُون على هذا التّشكيكِ بالقول: «**إنّ هذا الَّذي وصل إلينا على أنّه نثرٌ جاهليّ إنّما يُصَوِّرُ لنا مادّةَ ذلك النّثر وروحَهُ وطبيعتَه وكثيرًا مِنَ مَلامِحِهِ، لكنْ لا بصورةٍ دقيقة، وإنّما بصورةٍ عامّة؛ لأنّ هذا النّثر الَّذي وصل إلينا نَحَلَهُ أُناسٌ بعد الإسلام، ولكنْ لا بُدَّ أنّهم كانوا يَقِيسُون على نماذجَ وأساليبَ جاهليّة**».

ولا داعِيَ للوُقُوف عند هذا الزّعم طويلًا، لأنّ القضايا الّتي عُولِجَتْ في توثيق الشّعر الجاهليّ من كتابةٍ وروايةٍ وتدوينٍ ونَحْلٍ تنطبق

على النّثر الجاهليّ نفسِه، فما وصل إلينا من هذا النّثر عن رواةٍ ثقاتٍ يكون إنكارُهُ والتّشكيك فيه ضَرْبًا مِنَ العَبَثِ الَّذي لا ينتهي؛ ثمّ إذا صحّ أنّهم وضعوا هذا النّثر على نماذجَ وأساليبَ جاهليّةٍ كانت لديهم أفليس من الأجدر أن تَصِلَ إلينا تلك النّماذجُ الّتي كانوا يَقِيسُونَ عليها؟!

وربّما احتجَّ بعضُهم لهذا التّشكيكِ باختلافِ رِوايةِ بعضِ ذلك النّثر؛ وليس ذلك بحُجَّةٍ، لأنّ الاختلاف ممّا يقع في الشّعرِ وفي النّثرِ، لأسبابٍ تتعلّق بالقائل أحيانًا وبالنّاقل أحيانًا وبمصدر النّاقل أو اختلافِ مصدر النّاقلين أحيانًا أخرى؛ ولكنّ ذلك كلَّه لا يُخوِّلُ أحَدًا الشّكّ في صحّةِ أصلِ هذه الآثار.

واحتجّ بعضُهم بأنّ هناك مَنْ لم يتورَّعْ عن وَضْعِ الحديث على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالأَحْرى ألّا يتورّعَ عن وَضْعِ الخُطَبِ ونحوِها على خطباء الجاهليّة، وهذه حُجَّةٌ واهيَةٌ جِدًّا، لأنّ أسبابَ وَضْعِ الحديثِ ودَواعِيَه كثيرةٌ جدًّا دَرَسَها علماءُ الحديث، بخلاف دَواعي الوضْعِ على خطباء الجاهليّة؛ ولا أدَلَّ على ذلك مِنْ أنّ ما وصل إلينا من خُطَبهم وسائرِ نثرهم لا يُعَدُّ شيئًا إذا ما قِيْسَ بما وصل إلينا من شعر الجاهليّة، فلا يكاد المَرْءُ يجد لأشهر خطبائهم خُطَبًا تزيد على أصابعِ اليَدِ الواحدة، وهي خُطَبٌ قصيرةٌ في الغالب، ليس من الصّعب حفظُها وتَناقُلُها.

وكـلُّ هـذا التّشـكيك الَّـذي دَأَبَ عليـه الدّارسـونَ يَرْجِـعُ إلى افتراضاتٍ وأوهامٍ وتخيّلاتٍ تحتاج إلى الدّليل العلميّ الـملموس الـمُقْنِع؛ ولذلك يجبُ الوقوفُ من هذا النّثر موقفَ القاضي العادل الَّذي يُحاكِمُ مُتَّهمًا ما، وإلّا حَكَمَ كلُّ امرئٍ بحَسَبِ هَواه وظُنونه، وإنّ الظّنّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئًا.

وسيكون الكلامُ فيما يأتي على أربعة أنواع رئيسة من النّثر الجاهليّ، هي: الخَطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال.

أوّلًا: الخَطابة الجاهليّة

١ - دَوَاعي ازدهارِ الخَطابة في الجاهليّة:

كانت حياة العرب في الجاهليّة، بأوجه النّشاط المختلفة فيها من حربٍ وصُلْح، ومنافراتٍ ومفاخَراتٍ، ووفادة على الملوك، ومواسمَ للتّجارة والحجّ، ومناسباتٍ اجتماعيةٍ مختلفة، تُؤهِّل الجاهليّين لأَنْ يُهيِّئوا لهذه الأحوال ما يناسبُها مِن خُطَبٍ تُبَلِّغُهم ما يُريدون، وينهضُ لهذه الخُطَبِ أُناسٌ ملكوا أَعِنَّةَ البيانِ بما فُطِروا عليه من فصاحةٍ وبديهةٍ وذَلاقةِ لِسان، حتّى إنّ الجاحظَ سحَبَ هذا الوصفَ على العربِ عامّةً حينَ قال: «**وكلُّ شيءٍ للعربِ فإنّما هُوَ بديهةٌ وارتجال، وكأنّه إلهامٌ، وليس هناكَ معاناةٌ ولا مُكابَدةٌ ولا إجالةُ فِكرٍ ولا استعانة، وإنّما هو أنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلى الكلام ... عندَ المُقارَعَةِ أوِ المُناقَلَةِ أو عند صِراعٍ أو في حرب، فما هو إلّا أنْ يصرِفَ وَهْمَهُ إلى جُمْلَةِ المَذْهَبِ وإلى العَمودِ الَّذي إليه يَقْصِدُ، فتأتيه المعاني أَرْسالًا، وتَنْثالُ عليه الألفاظُ انثيالًا ...** »، وهذه مبالغةٌ مِن الجاحظ، لأنّ في العرَبِ العَرَبِيَّ والفصيح، مثلما أنّ فيهم الجريءَ والجبان، ولولا وجودُ الحَصَرِ والعِيِّ مع الفصاحةِ والبَيانِ، لَمَا وَصفُوا ذلك كلَّه في أشعارهم.

٢- أشهر خطبائهم:

اشتُهِر بالخطابةِ في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من هؤلاء الفصحاء، **ففي قريشٍ** كانَ هاشمُ بنُ عبد مَنافٍ، وابنُه عبد المطّلب، وأميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف، وابنُه حَرْبُ بن أميّة، ونُفَيْلُ بن عبد العزّى، وعُتْبَةُ بن رَبيعة بن عبد شمس، وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو العامريّ القرشيّ، وغيرهم، **وفي الخَزْرَجِ**: قيسُ بنُ شمّاس، وابنُه ثابتُ بن قيس خطيبُ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، **وفي الأوسِ**: سعدُ بن مُعاذ، **وفي تميم**: أَكْثَمُ بن صَيْفيّ، وعُطارِدُ بنُ حاجِبِ بنِ زُرارة، وقيس بن عاصم، **وفي مَذْحِج**: الأَفْوَه الأَوْديّ، **وفي إياد**: قُسُّ بنُ ساعدة، **وفي شيبانَ**: هانئُ بنُ قَبِيْصَة، **وفي عَدْوان**: عامر بن الظَّرِب؛ وغيرُ هؤلاء كثيرٌ في كلّ قبيلة.

٣- مكانةُ الخَطيب:

كانت القبائل محتاجةً إلى الخُطباء حاجتَها إلى الشّعراء، ليقوموا في المقاماتِ المختلفة؛ على أنّ الشّاعرَ كان مقدَّمًا على الخطيبِ عند قدماء الجاهليّين، ولكنّ الأواخرَ منهم قدّموا الخطيب، وقد علّل أبو عمرو بن العلاءِ ذلك بقوله: «**كان الشّاعرُ يُقَدَّم على الخطيب، لِفَرْطِ حاجتهم إلى الشّعر الَّذي يُقَيِّدُ عليهم مآثِرَهم، ويُفَخِّمُ شأنَهم، ويُهَوِّلُ على عدوِّهم ومَنْ غزاهم، ويُهَيِّبُ مِنْ فرسانهم، ويُخَوِّفُ مِن كَثْرَةِ عددهم، ويهابُهم شاعرُ**

غيرِهم فيراقبُ شاعرَهم؛ فلمّا كثر الشّعر والشُّعراء، واتّخذوا الشّعرَ مَكْسَبَةً، ورحلوا إلى السُّوقَةِ، وتسرَّعوا إلى أعراضِ النّاس، صارَ الخطيبُ عندَهم فوقَ الشّاعر»؛ وفي كلام أبي عمرٍو إشارةٌ خفيّةٌ إلى أنّ الخطباء كانوا في العادة مِنْ أشراف النّاس وسادَتِهم، على خلافِ الشّعراء، فإنّ فيهم مَنْ لم يكن كذلك، فلجأ إلى التّكسّب بالشّعر والرّحلة لِمَدْحِ كلّ مَنْ يُعطيه.

٤- هَيْئَةُ الخطيب وصفاته:

كان للخطباء تقاليدُ وهيئاتٌ يحرِصُون عليها، وصفاتٌ لا غنى عنها؛ فكان مِنَ التّقليد أنْ يَلُوثَ الخطيبُ عِمامَتَهُ على رأسه، لأنّها مِن كمالِ هَيْئَةِ الرّجلِ وجَمالِهِ، وقد أُثِرَ عن عمرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه قولُهُ: «**العَمائمُ تِيجان العرب**»، وعن عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه: «**جَمالُ الرّجلِ في عِمَّتِهِ**»، وكان الخطيبُ يُمْسِكُ بيده عَصًا أو مِخْصَرَةً أو رُمحًا أو قَوْسًا يتّكئ عليها ويُشيرُ بها، فيرفعُها ويضعُها مُعَزِّزًا بها كلامَه، وقد عابَ عليهمُ الشُّعوبيُّونَ ذلك بعد الإسلام لجهلِهم سَبَبَهُ؛ فردّ عليهم الجاحظُ بقوله: «**إنّ حَمْلَ العصا والمِخْصَرَةِ دليلٌ على التّأهُّبِ للخُطْبَةِ والتّهيُّؤِ للإطنابِ والإطالة، وذلك شيءٌ خاصٌّ في خطباء العرب، ومقصورٌ عليهم، ومنسوبٌ إليهم، حتّى إنّهم لَيَذْهَبون في حوائجِهم والمَخاصِرُ بأيديهم، إِلْفًا لها وتوقّعًا لبعضِ ما يُوجِبُ حَمْلَها والإشارةَ بها**»، ومِن عادتِهم أَنْ

يُشْرِفَ الخطيبُ على النّاسِ حتّى يَرَوْهُ، فيستحوذَ على قلوبهم، فإمّا أن يصعَدَ مرتفَعًا مِنَ الأرض، وإمّا أن يركب على راحلته، فيَخْطُبَ بالنّاسِ وهو يرفع يدَهُ ويَضَعُها مُستَعِينًا بما يُمْسِكُه مِن عصًا أو رُمْحٍ أو قَوْسٍ.

ومن صفات الخطيب الّتي لا بدَّ منها أن يكونَ ثابتَ القلبِ قليلَ التّلفُّتِ، حاضرَ البَدِيهة، لا يتهيّبُ النّاسَ عندما يَرْمُونَ بأبصارهم إليه ويُقْبِلونَ عليه؛ ولا بدّ له أن يكونَ جَهيرَ الصّوت، سليمَ النُّطْقِ، كثيرَ الرِّيْق؛ ولذلك عابوا التَّنَحْنُحَ والارتعاشَ والسُّعالَ والعَبَثَ باللِّحْيَة وتَصَبُّبَ العَرَقِ، لأنّه دليلٌ على تَهَيُّبِ النّاسِ أو العِيّ؛ وقد وصفوا تلك المحاسنَ وهذه المعايِبَ في أشعارٍ ساقها الجاحظ في (البيان والتّبيين).

٥- مناسبات الخَطابةِ وأمْثِلَتُها:

للخَطابةِ مواطنُ ومناسباتٌ كثيرة، إذ كانوا يحتاجون إليها في المُنافَراتِ، والحروب، والدّعوةِ إلى السِّلمِ والصّلح، وفي وِفاداتهم على الملوك، ومواسم الحجّ، والمناسبات الاجتماعيّة كالزّواجِ والعَزاءِ وغيرِ ذلك؛ وفيما يأتي أمثلةٌ قليلةٌ منها، لاستخلاصِ الظّواهر الفنيّة في الخُطْبَةِ الجاهليّة.

فمِنَ المُنافَراتِ المشهورة في الجاهليّة مُنافَرَةُ عبدِ المطّلب بنِ هاشمٍ وابنِ أَخِيه حَرْبِ بن أميّةَ، ومنافرةُ جَريرِ بنِ عبد الله البَجَليِّ وخالد

بن أَرْطَاةَ الكَلْبِيّ، ومنافرةُ عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ وعَلْقَمَةَ بنِ عُلَاثة؛ وممّا جاء في منافرةِ عامرٍ وعلقمةَ – وقد ساقَها الأصفهانيُّ عن الأصمعيّ، وأبي عُبيدة، وابن الكلبيّ، والمفضّل الضَّبِّيّ، وأبي عمرو الشَّيبانيّ، وهي طويلةٌ كانت بينهما مراجعةٌ في الكلام– أنّ عامرًا قال: «**والله لَأَنا أَرْكَبُ منكَ في الحُماةِ، وأَقْتَلُ منكَ للكُماة، وخَيْرٌ منكَ لِلْمَوْلى والمَوْلاة**؛ فقال علقمةُ: **والله إنِّي أَعَزُّ مِنك، إنّي لَبَرٌّ وإنّك لَفاجِر، وإنِّي لَوَفِيٌّ وإنّك لَغادر، فَفِيمَ تُفاخرني يا عامر؟** فقال عامر: **والله إنّي لَأَنْزَلُ مِنكَ لِلْقَفْرَة، وأَنْحَرُ منك للبَكْرَة، وأَطْعَمُ منك لِلْهَبْرَة، وأَطْعَنُ منكَ للثُّغْرَة**».

ومِن خُطَبِهم المشهورةِ أيّامَ الحروب خُطبةُ هانئ بن قَبِيْصَة الشّيبانيّ يومَ ذي قار، يُحَرِّضُ قومَهُ على الحرب، وقد ساقَها القاليُّ بسنده إلى أبي عُبيدةَ؛ قال هانئ: «**يا معشرَ بَكْر! هالكٌ مَعْذور، خَيْرٌ مِنْ ناجٍ فَرور؛ إنّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِنَ القَدَرِ، وإنّ الصّبرَ مِنْ أسبابِ الظَّفَر؛ المَنِيّةُ ولا الدَّنِيّة، استقبالُ المَوْتِ خَيْرٌ منِ اسْتِدْبارِه، والطّعنُ في النُّحُورِ أَكْرَمُ منهُ في الأَعْجازِ والظُّهور؛ يا آلَ بَكْر! قاتِلُوا! فما لِلْمَنايا مِنْ بُدّ**».

ومِن خُطَبِهم في الدّعوة إلى الصُّلح خُطبةُ مَرْثِدِ الخَيْرِ بنِ يَنْكَفَ الحِمْيَرِيّ، وكان قَيْلًا، فوقَعَ تنازُعٌ على السّيادة بين سُبَيْعِ بن الحارث، ومَيْثَمِ بن مُثَوِّبٍ مِن قومِه، فخاف أن يقع بين حيَّيْهِما شرٌّ، فدعاهما، فخطب فيهما،

وسمع منهما، ثمّ عادَ فخطَبَ قائلًا: «**لا تُنْشِطُوا عُقُلَ الشّوارِدِ، ولا تُلْقِحُوا العُونَ القَواعِد، ولا تُؤَرِّثوا نِيرانَ الأحقاد، ففيها المَتْلَفَةُ المُسْتَأْصِلَة، والجائحةُ والأَلِيْلَة؛ وعَفُّوا بالحِلْمِ أَبْلادَ الكَلْم، وأَنِيبُوا إلى السّبيلِ الأَرْشَدِ والمنهَجِ الأَقْصَد، فإنّ الحربَ تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ الغُرور، وتُدْبِرُ بالوَيْلِ والثُّبُور**»، ثمّ قال شعرًا أوّلُه:

ألا هل أتى الأقوامَ بَذْلي نصيحةً حَبَوْتُ بها مِنِّي سُبَيْعًا ومَيْتَما

«فقالا: لا أيّها الملك، بل نقبَلُ نُصْحَك ...».

ومن خُطَبِهم في الوِفادة على الملوك خُطبة أَكْثَمَ بنِ صَيْفيّ، يعزّي فيها المَلِكَ عمرَو بنَ هند اللَّخْميّ وقد مات أخوه:

«**أيّها الملِك! إنّ أهلَ هذه الدّارِ سَفْرٌ لا يَحُلُّونَ عُقَدَ الرِّحالِ إلَّا في غيرِها، وقد أتاكَ ما ليس بَمَرْدودٍ عنك، وارْتَحَلَ عنك ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك مَنْ سيَظْعَنُ عنكَ ويَدَعُك؛ واعلَمْ أنّ الدّنيا ثلاثةُ أيّامٍ:**

فأَمْسِ: عِظَةٌ، وشاهِدُ عَدْلٍ، فَجَعَكَ بنفْسِهِ، وأبقى لكَ وعليكَ حكمَتَه.

واليومَ: غنيمةٌ وصديق، أتاكَ ولم تَأْتِه، طالَتْ عليك غَيْبَتُهُ، وستُسْرِعُ عنك رِحْلَتُهُ.

وغدًا: لا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ، وسيأْتِيكَ إنْ وَجَدَكَ.

فما أحسنَ الشّكرَ للمُنْعِمِ والتّسليمَ للقادِر! وقد مَضَتْ لنا أصولٌ نحنُ فُروعُها، فما بقاءُ الفروعِ بعدَ الأصولِ؟ واعلَمْ أنّ أعظَمَ مِنَ المُصِيبَةِ سوءُ الخَلَفِ منها؛ وخَيْرٌ مِنَ الخَيْرِ مُعْطِيه، وشرٌّ مِنَ الشّرِّ فاعِلُهُ».

ومِن خُطَبهم في المواسم خطبةُ قُسِّ بنِ ساعِدةَ الإياديّ في سُوقِ عُكاظ، وقد رآه النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يومَذاكَ راكبًا على جَمَلٍ أحمَرَ يَخْطُبُ بالنّاس ويقول:

«أيّها النّاس! اجتمِعُوا واسمَعُوا وعُوا، انْظُرُوا واذْكُروا؛ مَنْ عاشَ مات، ومَنْ ماتَ فات، وكلُّ ما هُوَ آتٍ آت؛ ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، أَلا إِنّ أَبْلَغَ العِظاتِ السّيرُ في الفَلَواتِ، والنّظرُ إلى مَحَلِّ الأموات؛ إنّ في السّماءِ لَخبَرًا، وإنّ في الأرضِ لَعِبَرًا؛ ما لي أَرى النّاسَ يذهبونَ فلا يرجِعُون؟ أَرَضُوا هناكَ بالمُقامِ فأَقاموا، أَمْ تُرِكُوا فَناموا؟

يا مَعْشَرَ إيادٍ! أينَ الآباءُ والأجداد؟ وأين المريضُ والعُوّاد؟ وأَينَ الفَراعِنَةُ الشِّداد؟ وأينَ مَنْ بَنَى وشَيَّد، وزخرَفَ ونَجَّدَ، وغرَّه المالُ والوَلَد؟ أَلَمْ يكونوا أكثرَ منكم أَموالًا، وأطولَ منكم آجالًا؟

في الذّاهبينَ الأوَّلِينَ ... مِنَ القُرونِ لنا بَصائِرْ
لَمّا رأَيْتُ مَوارِدًا ... لِلْمَوْتِ لَيْسَ لها مَصادِرْ

ورَأَيْـــتُ قَـــوْمِي نَحْوَهـــا يَـمْضِي الأَكـابِرُ والأَصـاغِرْ
لا يَرْجِـــعُ المــــاضي ولا يَبْقَـى مِـنَ البـاقِينَ غـابِرْ
أَيْقَنْـــتُ أَنِّي لا محــالَةَ حَيْـثُ صـارَ القَـوْمُ صـائِرْ»

ومن خُطَبِهم في المناسبات الاجتماعيةِ خُطبةُ أَبي طالبٍ –وقيلَ: حَمْزَة- عَمِّ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم في زواجِ السّيدةِ خَدِيجَةَ رضِيَ اللهُ عنها:

«الحمدُ للهِ الَّذي جعلَنا مِنْ زَرْعِ إبراهيم، وذُرِّيَّةِ إسماعيل، وجعلَ لنا بَلَدًا حَرامًا، وبَيْتًا مَحْجُوجًا، وجعلَنا الحُكّامَ على النّاس؛ وإنَّ محمّدَ بنَ عبدِ الله، ابنَ أَخي، لا يُوازَنُ به فَتًى مِنْ قريشٍ إلّا رَجَحَ علَيْه، بِرًّا وفَضْلًا، وكَرَمًا وعَقْلًا، ومَجْدًا ونُبْلًا، وإنْ كانَ في المالِ مُقِلًّا، فإنّ المالَ ظِلٌّ زائلٌ، وعاريَّةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ؛ ولهُ في خديجةَ بنتِ خُوَيْلدٍ رَغْبَةٌ، ولها فيهِ مثلُ ذلك، فما أَحْبَبْتُمْ مِنَ الصَّداقِ فَعَلَيَّ».

٦- الظّواهر الفنّيّة في الـخُطَب الجاهليّة:

سبقَ القَوْلُ إنّ ما وصل إلينا من خُطَبِ الجاهليّة قليل، وإنّ ما وصل إلينا لأشهر خطبائهم لا يكاد يتجاوزُ أصابعَ اليَدِ الواحدة؛ ولذلك يصعُبُ أن تُعْطَى أحكامٌ خاصّةٌ لكلِّ خطيب، ولكن يمكن ممّا وصل إلينا

من خطبهم أن يُشارَ إلى ظواهرَ عامّةٍ كانت في خطبهم، من حيثُ الشّكلُ، ومن حيثُ المضمونُ.

أ - ظواهرُ في الشّكل:

إنّ أول ما يلفت النّظرَ في خُطَب الجاهليّة هُوَ **القِصَر**، فمعظمُ خطبِهم الّتي بين أيدينا كهذه الخُطَبِ السّابقة قِصارٌ، ولكنْ لا يَعْدَمُ الباحِثُ بعضَ الخطبِ الّتي تتّسم بالطّول، وهي قليلة، كخُطبةِ النّابغة الذُّبيانيّ حينَ وَفَدَ على عمرو بن الحارث الغَسّانيّ وطلَبَ إطلاقَ أَسرى بَنِي ذُبْيانَ، والخُطبةُ الّتي ذكر الجاحظُ أنّ قيسَ بنَ خارجةَ بنِ سِنانٍ الغَطَفانيَّ خطبَها يومًا إلى اللّيل، في حرب داحسٍ والغبراءِ؛ وربّما كان سببُ قلّة الخطبِ الطّويلة ضياعُ كثيرٍ من خطبهم، ولا شكَّ في أنّ الخُطَب الطّويلة أصعبُ حِفظًا من القصيرة.

ومن الظواهر الشّكليّة الواضحة في الخُطبة الجاهليّة أنّ **السَّجْعَ كثِيرٌ فيها**، وهذا السّجع قد يكون شاملًا للخطبة، كما في خطبة قُسٍّ بن ساعدة، وكما هُوَ في المنافرات مثل منافرة عامر وعلقمة، وكذلك كان كلام الحُكّام الَّذين يَحْكُمون بين المتنافرين، حتّى جَعَل الجاحظُ السّجعَ صفةً عامةً لأَحْكام الحُكّام، فقد ذكر عددًا منهم فقال: «كانوا يَحْكُمُونَ ويُنَفِّرُونَ بالأَسْجاع»؛ ومثال ذلك قول نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى العَدَوِيِّ القُرَشِيِّ –وهو

جَدُّ عُمَرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه- يُخاطِبُ حَرْبَ بنَ أميّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَناف ويُنَفِّرُ ابنَ عَمِّ أَبيهِ عبدَ المُطَّلِب بنَ هاشمِ بنِ عبدِ مَناف عليه: «**يا أبا عَمْرو! أَتُنافِرُ رَجُلًا هو أطولُ مِنْكَ قامَةً، وأَعظَمُ منك هامَةً، وأَوْسَمُ منك وَسامَةً، وأَقَلُّ منك مَلامَةً، وأَكثرُ منك وَلَدًا، وأَجْزَلُ منك صَفَدًا، وأَطْوَلُ منك مِذْوَدًا؟ وإِنِّي لَأَقولُ هذا، وإِنَّكَ لَبَعيدُ الغَضَب، رَفِيعُ الصَّوْتِ في العَرَب، جَلْدُ المَرِيرة، جَلِيلُ العَشِيرة؛ ولكنَّكَ نافَرْتَ مُنفَّرًا**».

وقد يكونُ السّجعُ غالبًا، كما في خطبةِ هانئ بن قَبِيْصَة؛ وقد لا يكون غالبًا، كما في خطبة أبي طالب.

وتتميّز هذه الخُطَبُ **بِقِصَرِ العبارة، وتوازُن العباراتِ المُتَتاليَة**، وهو مثلُ السَّجْعِ ممّا يُوَفِّرُ لها موسيقى تؤثِّرُ في المستمع.

وربّما لجأ الخطيبُ إلى **الاعتمادِ على الشِّعر** واختتامِ الخُطْبة به، ولكنّ ذلك نادرٌ في خطبهم، ومثالُه خُطبة ابنِ ساعدة، وخُطبة مَرْثِدِ الخَيْرِ.

ب- ظواهرُ في المَضمون:

ممّا يُلْحَظُ في مُعظَمِ الخطب الجاهليّة **وَحْدَةُ الغَرَض**، ولكنّنا لا نعدَمُ خُطَبًا تتعدّدُ أغراضُها،كخطبةِ النّابغةِ الذُّبيانيّ أمامَ عَمْرٍو الغسّانيّ، فقد بدأها بمدح الملك، ثمّ انتهى إلى طلبِ إطلاقِ الأسرى، وكذلك خُطبةُ عبدِ المُطَّلِبِ أمامَ سيفِ بنِ ذِي يَزَن أوِ ابنِه مَعْدِيكَرِبَ بنِ سَيْفٍ، فقد بدأَ بمدحِ الملِكِ، ثُمّ افتخرَ بقَوْمِه قُرَيْش، وهنَّأَ الملِكَ في آخرها؛ وفي

الإمكانِ القولُ إنّ للخطيبِ غَرَضًا رئيسيًّا، مَهَّدَ لهُ بما يستميل إليهِ المُخاطَب ويُكْسبُهُ وُدَّه، فإذا ما انتهى إلى غَرَضِهِ وَجَدَ عندَه ما يطلُبُه، كما كان الشّاعُر يَفعلُ في القصيدِ.

ومن الظّواهر المعنَويّةِ **وضوحُ الأفكار، وبعدُها عن الغموض والتّعقيد**، وهو أمرٌ مَلحوظ في جميع الخطب؛ كما يُلحظ أنّ الخطبةَ تتسلسل في الغالب تسلسلًا منطقيًّا، لها افْتِتاحٌ وجَسَدٌ واختتام، إذْ تبدأُ في العادة بعبارة تتضمّنُ نداءً أو مُخاطَبةً أو نحوَ ذلك ممّا يشدّ الأسماع إلى الخطيب، ثمّ يذكر ما يريد، ويختمها بعبارةٍ تحملُ حِكْمَةً أو نحوها مما يلخّص المُرادَ.

ويُلحظُ أنّ **الإنشاءَ**، مِن أمرٍ ونهيٍ ونداءٍ واستفهامٍ وتمنٍّ وتعجّبٍ، **يَغْلِبُ على الخبر**؛ ولا شكّ في أنّ ذلك ممّا يُبقي المخاطَبينَ مشدودين إلى الخطيب، لأنّ الإنشاءَ أسلوبٌ يستدعي مشاركةَ الآخَرينَ، أكثرَ من الخبر؛ فكانَ مِنْ فِطْنَتِهِمْ أَنَّ الخطيبَ عندما يستعمل الخبرَ يلجأُ إلى التّأكيد بالقَسَمِ وأَحْرُفِ التّنبيهِ وأحرفِ التّوكيد وغيرِها من أساليب التّأكيد، وربّما لجأ إلى الموازَنَةِ والمقارنة، وهو مِمّا يُكْسِبُ الخبرَ حيويّةً تبعِدُهُ عن جَفافِ الخبر العاديّ.

وكلَّ هذه الظّواهر الشّكليّة والمعنويّة كانت توفِّر للخُطبةِ الجاهليّة جمالًا فنّيًّا أحسَّ به الجاهليّون فاستلذّوا سماعَها، حتّى شبَّهوها «بالثّيابِ

الـمُوَشّاةِ وبالحُلَلِ والـدّيْباج وأشباهِ ذلك،كما في رثاءِ أبي قُرْدُودةَ الطّائيّ لابنِ عَمّارٍ خَطِيبِ مَذْحِجَ حين قُتِلَ، فقال:

ومَنْطِـــقٍ خُـــرِّقَ بِالعَواسِـــلِ لَـذٍّ كَـوَشْيِ اليُمْنَـةِ الـمَراحِلِ

وهكذا تبيّنَ أنّ الخَطابةَ في الجاهليّة توافَرتْ لها أسبابٌ جعلتها تزدهر، فاشْتُهِرَ بها في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من البلغاء الفُصَحاء تميَّزُوا بصفاتِ الخطيبِ النّاجح، فخطبوا في مناسباتٍ مختلفةٍ، ووفّروا لخطبهم مظاهرَ فنّيّةً في شكلِها ومضمونها جعلَتِ النّاسَ تتأثّرُ بها وتُقْبِلُ عليها بآذانٍ مُصْغِية، وقلوبٍ واعية.

ثانيًا: سَجْع الكُهّان

الكَهانَةُ، بفتح الكاف، مصدرُ: كَهَنَ لَهُ، إذا قَضَى له بالغيبِ، وقلّما يُقالُ إلاّ: تَكَّهَنَ؛ وقد كَهُنَ إذا صار كاهنًا؛ والحِرْفَةُ: الكِهانة، بكسر الكاف؛ ويلحق بالكِهانة العَرَافة والتَّنْجِيم؛ والعرب تُسَمِّي كاهنًا كلَّ مَنْ تَعاطَى عِلْمًا دقيقًا، ومنهم مَنْ يُسَمِّي المُنَجِّم والطّبيبَ كاهنًا.

والكِهانةُ ظاهرةٌ معروفةٌ عند جميع الأمم على اختلافِ درجاتها في التَّحضُّر؛ وقد تكَّلم على الكِهانة كثيرٌ من أهل العلم قديمًا وحديثًا وبسطوا القولَ فيه وأوجزوا؛ والكِهانةُ ضُروبٌ عِدّة، فمِن الكُهّان في الجاهليّة مَن كان يَذْكُرُ أنّ له صاحبًا مِنَ الْجِنِّ، يُخْبِرُه بما يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ مِنَ السّماء، أو يخبره بما يطرأ ويكون في أنحاء الأرضِ مِمّا يَخْفَى عليه، ويُسمَّى ذلك الْجِنِّيُّ رَئِيًّا، ومِنَ الكُهّان مَنْ كان يَسْتَدِلُّ على الأمور بظنِّه وحَدْسِهِ وتَخْمِيْنِهِ، وهي مَقْدِرةٌ لا تُنْكَرُ عندَ بعضِ النّاس، ولكنّهم كانوا يَزْعُمونَ أنّهم يعرفون تلك الأمورَ بالزَّجْرِ والطَّرْقِ بِالحصى. والنُّجومِ ونحو ذلك، ومِنْهم مَنْ يَستَنِدُ إلى التّجربةِ والعادة، فيتوقّعُ أمورًا بناءً على مُقَدِّماتٍ مِنَ الكلام أو الأفعال أو الأقوال سَلَفَتْ في حوادِثَ أُخرى.

١ - الكهانة عند العرب:

عرَفَ العربُ هذا الضَّرْبَ مِنَ العِلْمِ في الجاهليّة، وكان شائعًا فيهم، ولا سِيَّما في اليمن، حتّى كان العرب يأتونهم مِن كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ يستشيرونهم ويَصْدُرونَ عن رَأْيِهِمْ؛ ولعلّ كَثْرَةَ انتشارهم في اليمن راجعٌ إلى كَثْرَةِ المعابدِ الوثنيّة فيه، وإلى تقديسِهمُ الشّمسَ والقمرَ والنّجومَ منذ أقدم عصورِهم.

وقد **اشتهر بالكِهانةِ عددٌ من الرّجالِ والنّساء**، لَيْسُوا بكَثْرَةِ الخُطَباء، فمن الكُهّانِ المعروفين: سَطِيحٌ، وهو رَبِيعُ بنُ رَبِيعَةَ الذِّئْبِيُّ الغَسّانيّ مِن أهلِ الْجَابِيَةِ بالشّام، وشِقُّ بنُ الصَّعْبِ البَجَلِيُّ القَسْرِيّ الأَزْديّ، وسَلَمَةُ بنُ المُعَقَّلِ الحارثيّ، وسَلَمَةُ بن أَسْحَمَ القُضاعيّ، وكانَ سادِنًا للعُزَّى، والكاهنُ بنُ حبيبٍ الخُزاعيّ، وعَوْفُ بن رَبيعةَ الأَسَدِيّ، وغيرُهم؛ ومِنَ الكَواهِنِ: طَرِيفَةُ الخَيْرِ الَّتي كانت معَ مُزَيْقِياءَ عَمْرِو بنِ عامِرٍ مِنْ سَبَأ، وزَبْراءُ القُضاعيَّةُ كاهِنَةُ بَنِي رِئامٍ في اليَمَنِ، وكاهِنَةُ ذِي الخَلَصَةِ -وهو صَنَمٌ للعَرَبِ بـ(تَبالةَ) - وسَلْمَى الهَمْدَانيّة، والزَّرقاءُ بِنْتُ زُهَيْرٍ الْجَدِيسيَّة، ونَجَاح كاهِنَةٌ كانت بالحِجاز، وغيرُهُنّ؛ ويُلْحَظُ أنّ معظم هؤلاء الكُهّان والكَواهِن من قبائل اليمن.

٢- مناسبات الكهانة وأمثلةٌ مِنْ سَجْعِ الكُهّان:

احتاجَ الجاهليّون إلى هؤلاء الكُهّان في كثير من أمورِهم وشؤونهم الخاصّةِ والعامّة، كالزَّواجِ والولادةِ والحرب ودَفْعِ الدِّيَاتِ والإقامةِ والظَّعْنِ، وكانُوا يُحَكِّمُونَهم في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم؛ فكانوا يَقْصِدُونَهم ليستشيرُوهُمْ ويَسْتَنْبِئُوهُم، ثُمَّ كانُوا يَصْدُرُونَ عَن رأيِهم، ورُبّما خالَفُوهم.

وما يُهِمُّنا مِن هؤلاءِ الكُهّانِ ما وصل إلينا مِن آثارهم الأدبيّة، ولذلك سنقفُ عند أمثلة من أقوالهم، لِنَرى كيف كانوا يتكلّمون، وما الظَّواهر الفنّيّة في كلامهم.

فمن ذلك أنّ رُقَيَّةَ بِنْتَ جُشَمَ زَوْجَ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ والدِ بَنِي عامرٍ ولَدَتْ لَهُ نُمَيْرًا وهِلالًا وسُواءَةَ، ثُمَّ حمَلَتْ فأَتَتْ كاهِنَةَ ذِي الخَلَصَةِ فأَرَتْها بَطْنَها، فنظرَتْ إليها ومَسَّت بَطْنَها وقالت: «**رُبَّ قبائِلَ فِرَق، ومَجالِسَ حِلَق، وظُعُنٍ خُرُق، في بَطْنِكِ زُقّ**»، فلمّا جاءَها المَخَاضُ قالت: «أعرِفُ ضَرطِي بِهلالٍ!»، أَيْ: هُوَ غُلامٌ كما أنّ هِلالًا كانَ غُلامًا.

ومنه أنَّ عَمْرَو بنَ بَرّاقَةَ الهَمْدانيّ – وكان شاعرًا صُعْلُوكًا- أراد الإغارةَ على رجلٍ مِنْ مُرادٍ يُقالُ له (حَرِيم)، فأَتى سَلْمَى الهَمْدانيّةَ

يَسْتَشِيرُها، فقالت[1]: «**والخَفْوِ والوَمِيْض، والشَّفَقِ كالإِحْرِيض، والقُلَّةِ والحَضِيض! إنَّ حَرِيمًا لَمَنِيعُ الحِيْز، سَيِّدٌ مَزِيز، ذُو مَعْقِلٍ حَرِيز؛ غَيْرَ أَنِّي أَرى الحُمَّةَ سَتُظْفِرُ مِنْهُ بِعَثْرَة، بَطِيئَةِ الْجَبْرَة؛ فأَغِرْ ولا تُنْكَعْ**»، فأغارَ عمرٌو فاسْتاقَ كلَّ شَيْءٍ لَه.

ومنه أنّ زَبْراءَ القُضاعيّةَ الكاهنةَ أَنْذَرَتْ بَنِي رِئامٍ مِن غَزْوِ بَنِي ناعِبٍ وبَنِي واهِنٍ، فقالت[2]: «**واللَّوْحِ الخافِق، واللَّيْلِ الغاسِق، والصّباحِ الشّارِق، والنَّجْمِ الطّارِق، والمُزْنِ الدَّافِق! إنَّ شَجَرَ الوادِي لَيَأْدُو خَتْلا، ويَحْرُقُ أَنْيابًا عُصْلا، وإِنَّ صَخْرَ الطَّوْدِ لَيُنْذِرُ ثُكْلا، لا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلا**»؛ وكان في القَوْمِ سُكارَى، فسَخِرُوا منها، فطَرَقَهُمُ العَدُوُّ فقَتَلُوهُم.

ومنه ما كانَ مِن مُنافَرَةِ هاشِمِ بنِ عبدِ مَنافٍ وابنِ أَخِيهِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عبدِ مَناف، إذ أَتَيَا الكاهِنَ بنَ حبيبٍ الخُزاعيَّ - وكانَ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ مَكّة- وكانَ معَ أُميّةَ والِدُ زَوْجِه أَبُو هَمْهَمَةَ بنُ عبدِ العُزَّى الفِهْرِيُّ، فقال الكاهن: «**والقَمَرِ الباهِر، والكوكبِ الزّاهِر، والغَمامِ الماطِر،**

---

(١) الخَفْوُ: اللَّمَعانُ الضَّعيف؛ والوَميض: أَشَدُّ لَمعانًا مِنه. والإِحْرِيض: حِجارةُ النَّوْرَةِ (الكِلْس). والحِيْز: النّاحية. ومَزِيز: فاضل. والحُمَّة: القَدَر، واحِدَةُ الحِمام. وتُنْكَع: تُرَدّ.

(٢) اللَّوْح: الهواءُ الَّذي بين السّماء والأرض. يَأْدُو: يَخْتِلُ. وحَرَقَتْ أَنْيَابُه: حَكَّ بَعْضُها بَعْضًا. والعُصْلُ: المُعْوَجّة. والمَعْلُ: المَنْجَى.

وما بِالْجَوِّ مِن طائِر! وما اهْتَدَى بعَلَمٍ مُسافِر، مِنْ مُنْجِدٍ وغائِر، لَقَدْ سَبَقَ هاشِمٌ أُميَّةَ إلى المَآثِر، أَوَّلٌ مِنْهُ وآخِر، وأَبُو هَمْهَمَةَ بذلِكَ خابِر»، فقَضَى لهاشِمٍ بالغَلَبَةِ.

ومنه أنّ بني تميمٍ أغاروا على لَطِيمَةٍ[1] لِكِسْرَى، فأوقعَ بهم، وقَتَلَ المُقاتِلَةَ، فبلَغَ ذلك بني الحارثِ بنِ كعبٍ مِن مَذْحِج، وحالَفُوا قبائلَ أُخرى مِن اليَمَنِ وساروا يُرِيدُونَ بني تميمٍ، فحذَّرَهم سَلَمَةُ بن المُعَقَّلِ كاهنُ بني الحارِث فقال: «**إنّكم تَسِيرُونَ أَعْقابًا، وتَغْزُونَ أَحْبابًا، سَعْدًا ورِبابًا، وتَرِدونَ مِياهًا جِبابًا، فتَلْقَوْنَ عليها ضِرابًا، وتَكُونُ غَنِيمَتُكُمْ تُرابًا؛ فأَطِيعُوا أَمْرِي ولا تَغْزُوا تَمِيمًا!**»، فخالَفُوه، فقاتلَهُم بنو تميمٍ وهزَمُوهم هَزِيمَةً نَكْراءَ.

ومنه أنّ عبد المطّلب بن هاشم كان له ماءٌ بالطّائف يقال له (ذو الهَرِم) فغلبه عليه جُنْدُبُ بنُ الحارثِ الثّقفيُّ، فنافرهم عبدُ المطّلب إلى سَلَمَةَ بنِ أَبي حَيّةَ القُضاعيّ، وهو المعروف بعُزَّى سَلَمَة، وكانَ بالشّامِ، فخَبَّؤُوا له خَبِيئًا ليَخْتَبِرُوه فعَرَفَه، فطلبوا إِلَيْهِ الحُكْمَ، فقال: «**أَحْكُمُ بالضِّياءِ والظُّلَم، والبَيْتِ والحَرَم! أَنَّ الماءَ ذا الهَرِم، للقُرَشِيِّ ذِي الكَرَم**».

---

(١) عِيْرٌ فيها تِجارةٌ مِنْ بَزٍّ وطِيْبٍ.

٣ - الظّواهر الفنيّة لسجع الكهّان:

هذه الأمثلةُ مِن آثار كُهّان الجاهليّة تُعطي صورةً لكلامِهم وظواهرِه الفَنِّيَّةِ شَكْلًا ومضمونًا.

أ- ظواهرُ الشَّكل:

يُلحَظُ أنّ أبرز ما في كلامهم من حيثُ الشّكلُ هو **ملازمَتُه السَّجْعَ**، حتّى قال الجاحظُ في بعضهم: «كان حازِي جُهَيْنةَ وشِقٌّ وسَطِيحٌ وعُزَّى سَلَمَة وأشباههم يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع»، والحازي: الكاهن؛ وقد ضرَبَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بِسَجْعِهِمُ المثَلَ، إِذِ اقْتَتَلَتِ امرأتان مِن هُذَيْلٍ، فرمَتْ إحداهما الأُخرى بحَجَرٍ فأصابَتْ بطنَها وهيَ حامِلٌ، فقتلَتْ ولدَها، فقضى بأنْ يُودَى الطِّفْلُ غُرَّةَ عبدٍ أو أَمَةٍ، فقال وَلِيُّ المرأةِ الّتي غَرِمَتْ: «**كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لا شَرِبَ ولا أَكَل، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلّ، فمِثْلُ ذلكَ يُطَلّ**»، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «**إنَّ هذا مِن إِخوانِ الكُهّان**»، وذلك بسبب سَجْعِه الَّذي سجَعَ؛ وهذا السّجع الَّذي يلازم كلامَهم يعتمدُ في الغالب على سَجْعَةٍ واحدة، على خِلافِ كلامِ الخُطَباء، فإنّهم يُنَوِّعون فيه.

وممّا نلاحظُ أيضًا **قِصَرُ عباراتهم وتوازنُها**، وهي في الغالبِ أقصرُ مِن عباراتِ الخطباء؛ بل إنّ أقوالَهم هذه جُمْلَةً تتميّزُ بالقِصَر، إذ لا تكادُ

تصلُ إلى عَشْرِ سَجَعاتٍ في أطوَلِها إلّا نادرًا؛ وكلّ ذلك يوفّرُ لأقوالهم ما يَبْهَرُ السّامعَ ويؤثّرُ فيه.

وأمّا **خَلْطُ الشّعرِ بالنّثرِ** الّذي تُلْحَظُ قلّتُه في خُطَبِ الجاهليّين، فقلّما نلقاهُ في آثارِ كهّانِهم أيضًا، وإن كانَ بَعْضُ تَكَهُّنِهم شِعرًا أحيانًا.

ب- ظواهرُ المضمون:

يُلحَظُ في سجع الكهّان من حيثُ المضمونُ: **كَثْرَةُ أَقْسامِهِم بمظاهرِ الطّبيعةِ** من نجومٍ وكواكبَ، وبَرْقٍ وغَمامٍ ورِياح، وحَيَوان، ونحو هذا؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ في هذه الأشياء قُوًى وأرواحًا خَفِيَّةً؛ ولأنّ الاعتماد على القَسَمِ مِن أساليبِ التّوكيدِ والمبالغة، فهم يؤثّرونَ بأَقْسامِهم هذه فيمَنْ جاء إليهم؛ وقد جاء القَسَمُ بمظاهرِ الطَّبيعةِ وغيرِها في القرآن الكريم كثيرًا تَنْبيهًا على عَظَمَةِ الخالِقِ وتمهيدًا للأمر الَّذي تتناولُه الآياتُ بعدَ القَسَمِ، ولله تَعالى أَنْ يُقْسِمَ بِما شاءَ مِن خَلْقِه، ولكنْ لا أَثَرَ لِلْقَسَمِ بشيءٍ مِن ذلك في أحاديثِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهذا مِنَ الفَوارِقِ المُمَيِّزةِ لكلامِ اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ كلامِ رَسُولِه.

وتكثُرُ في كلامِهِمُ **الألفاظُ الغامِضةُ** الّتي ربّما ألجأهم إليها السّجع، وربّما لجؤوا إليها ليوفّروا لعباراتهم غموضًا يسمَحُ بتعدّد تأويلِها، وربما كانت كثرتُها لأنَّ معظمَهم مِنَ اليمن، وفي لغةِ اليمنِ ألفاظٌ ليسَتْ في لغةِ الشَّمال.

وبـذلك روّج كُهّـانُ الجاهليّـة أقـاويلَهم بأَسْـجاعٍ كانـت تـروقُ السّامعين، فيَسْتَمِيلون بها القلوب، ويستَصْغُون إليها الأسماعَ، فكان لهم ذلكَ الأثرُ والسّيطرةُ على الجاهليّين، حتى جاء الإسلامُ فذمَّهم، ونَهى عن غِشْيانِهم، فقال رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: «**مَنْ أَتَى كاهِنًا أو عَرّافًا فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على مُحَمَّد**»، وعندما ذُكِرَ له أنّهم يُحَدِّثونَ أحيانًا بِشيء فيكونُ حقًّا قال: «**تِلْكَ الكلمةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُها الْجِنِّيُّ، فَيُقِرُّها في أُذُنِ وَلِيِّه، فَيَخْلِطُونَ معَها مِئَةَ كَذْبَة**».

ثالثًا: الوَصايا الجاهليّة

١ - تَعْرِيفُ الوَصِيَّةِ وبعضُ ما أُلِّفَ فِيها:

الوصيّةُ الأدبيّةُ ضَرْبٌ منَ الأدبِ الرّفيع، يحملُ مِنَ النّصائحِ ما يَتَوَخَّى المُوصِي بها خَيْرَ المُوصَى، مِن أَمْرٍ بما يكون فيه خَيْرُه، ونَهْيٍ عمّا يكونُ فيه شَرُّه؛ والرُّجوعُ إلى الأصل اللُّغَويّ للوصيّة يكشِفُ جانبًا من تعريفِها ومِن هدفِها، فالعربُ تقول: وَصَيْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ إذا وَصَلْتَه، ومنه يُقالُ: أَرْضٌ وَاصِيَةُ النَّبات إذا اتَّصَل نَباتُها، وفَلاةٌ وَاصِيةٌ إذا اتّصلَتْ بفَلاةٍ أُخرى، وكلُّ مَنْ كانَتْ بينَهُ وبينَ غيرِهِ صِلَةٌ فهو وَصِيُّهُ، ومِنْ ثَمَّ كان معنى (الوَصِيَّةِ) الصِّلةَ الّتي أَرادَ المُوصِي أَنْ يَصِلَ بها المُوصَى، وهي الصِّلَةُ بينَ الوَصِيِّ ووَصِيِّهِ.

وقد جاءَنا عنِ الجاهليّينَ مجموعةٌ مِن الوصايا شِعْرًا ونَثْرًا، حَفِظَها العرَبُ إلى ما بعدَ الإسلام، ومَدارُ الحَدِيثِ هُنا عَمّا جاءَ نَثْرًا، وقد أدرَكَ العلماءُ الأوائلُ قيمَتَها فخَصَّصوا لها كُتُبًا جَمَعُوها فيها، ككِتابِ (وصايا العرب) لهشامِ بنِ مُحَمَّدٍ الكَلْبيّ، و(الوصايا) لأَبي حاتِمٍ السَّجِستانِيّ، طُبِعَ مع كِتابِه (المُعَمَّرُون)، و(وَصايا المُلوكِ وأَنْباءُ أَبْناءِ المُلوك) أو (وصايا ملوك العرب في الجاهليّة) لأبي الطَّيِّبِ محمّد بن إسحاق بن يحيى النحويّ، ويُعرَفُ بابنِ الوَشّاءِ وهو مطبوع، وجُلُّ ما فيه مِن الوصايا والأشعار

مُخْتَلَقٌ، ونُسِبَ لِدِعْبِلِ بنِ عليٍّ الخُزاعيّ الشّاعر، و(كتاب الوصايا) لأَبي حَنِيفةَ الدِّينَوَرِيّ؛ وفي هذا العصرِ جَمَعَ أحمد زَكِي صَفْوَت عددًا منها في كتابه (جَمْهَرَة خُطَبِ العَرَب)، وجَمَعَ مُحَمّد نايف الدُّلَيْمِيّ وَصايا العربِ في الجاهليّة والإسلام في كتابِه (جَمْهَرَة وَصايا العرب) في ثلاثة أجزاء، استأثرَتْ وصايا الجاهليّةِ بِبَعْضِ الجُزْءِ الأَوَّل.

٢- دَواعِي الوصايا وأَمْثِلَةٌ مِنها:

يَلْحَظُ مُتَتَبِّعُ الوصايا الّتي وصلت إلينا من الجاهليّين أنّ الآباءَ والأمّهاتِ والملوكَ والسّادةَ والحكماءَ كانوا يُلْقُونَ وصاياهم إلى أبنائِهم وأبناءِ قبائلهم ومَنْ يُهِمُّهم فَلاحُهُمْ ونَجاحُهُمْ، يُلَخِّصُون فيها تَجارِبَهُمْ في الحياةِ بعدَما عَرَكَتْهُمْ وعَرَكُوها، فذَاقُوا حُلْوَها ومُرَّها، وخَبِروا خَيْرَها وشَرَّها، وعرفوا شِدَّتها ولينَها.

وقد يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ مِن شَرْطِ الوَصيَّةِ أَنْ يُلْقِيَها رَجُلٌ أَدْبَرَتْ عنه الحياةُ وأَقْبَلَ عليه الموتُ، فأَلْقَى وَصِيَّتَهُ كالمُوَدِّع، وليسَ هذا شَرْطًا ضَرُوريًّا، فقد تكون مِن حَيٍّ لا يَزالُ في عُنْفُوانِهِ إلى حَيٍّ مِثْلِهِ ولكِنْ تَنْقُصُهُ خِبْرَتُهُ؛ على أَنَّ جُلَّ ما وَصَلَ إلينا مِن وَصايا الجاهليِّينَ قالَهُ أُناسٌ مُعَمَّرُونَ.

ولا بُدَّ لمعرفةِ الوصايا الجاهليّة مِن الوقوفِ على بعضِ أمثلتها، لِلاطّلاع على بعضِ مضْمُونِها وبعضِ الظّواهر الفنّيّة الّتي قامت عليها.

أ- فمِن وصايا الجاهليّين عددٌ قليلٌ توجَّه بهِ الآباءُ أو الأمّهاتُ إلى أبنائِهم أو بناتِهم حينَ أَقْبَلُوا على **الحياة الزّوجيّة**، ومِن أشهر تلك الوصايا وصيّةُ أُمامةَ بنتِ الحارثِ الشَّيْبانيّةِ امرأةِ عَوْفِ بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ حينَ أَرادوا حَمْلَ ابنتِها إلى الحارِثِ بنِ عَمْرٍو الكنديّ المَلِكِ، فقالت لها:

«أَيْ بُنيَّة! إنَّ الوصيّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تُرِكَتْ لِذلِكِ مِنْكِ، ولكنَّها تَذْكِرَةٌ للغافِلِ، ومَعُونَةٌ للعاقِلِ؛ ولو أنَّ امرأةً اسْتَغْنَتْ عنِ الزَّوْجِ لِغِنى أَبَوَيْها، وشِدَّةِ حاجَتِهما إلَيْها، كُنْتِ أَغْنى النّاسِ عنه، ولكنَّ النِّساءَ لِلرِّجالِ خُلِقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرِّجالُ.

أَيْ بُنيَّة! إنّكِ فارَقْتِ الْجَوَّ الَّذي مِنْهُ خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الَّذي فيهِ دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ، وقَرِيْنٍ لَمْ تَأْلَفِيهِ، فأَصْبَحَ بِمُلْكِهِ عَلَيْكِ رَقيبًا ومَلِيكًا، فكُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْدًا وَشِيْكًا!

يا بُنيّة! احْمِلِي عَنِّي خِصالًا عَشْرًا، تَكُنْ لَكِ فَخْرًا وَذِكْرًا:

- الصُّحْبَة بالقَناعَةِ، والمُعاشَرَة بِحُسْنِ السَّمْعِ والطَّاعَة.

- والتَّعهُّد لِمَوْقِعِ عَيْنِهِ، والتَّفَقُّد لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ؛ فلا تَقَع عَيْنُهُ مِنْكِ عَلى قَبِيحٍ، ولا يَشَمّ مِنْكِ إلّا طِيبَ رِيحٍ؛ والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْنِ المَوْجُودِ، والماءُ أَطْيَبُ الطِّيبِ المَفْقُودِ.

- والتَّعَهُّد لِوَقْتِ طَعامِهِ، والهُدُوُّ عِنْدَ مَنامِهِ؛ فإنَّ حَرارَةَ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ.

- والاحْتِفاظ بِبَيْتِهِ ومالِهِ، والرِّعاية عَلى نَفْسِهِ وحَشَمِهِ وعِيالِهِ؛ فإنَّ الاحْتِفاظَ بالمالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، والإِرْعاءَ عَلى العِيالِ والحَشَمِ جَمِيلُ حُسْنِ التَّدْبيرِ.

- ولا تُفْشِي لَهُ سِرًّا، ولا تَعْصِي لَهُ أَمْرًا؛ فإنَّكِ إِنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ، وإِنْ عَصَيْتِ أَمْرَهُ أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ.

- ثُمَّ اتَّقِي مَعَ ذلِكِ الفَرَحَ إِنْ كانَ تَرِحًا، والاكْتِئابَ عِنْدَهُ إِنْ كانَ فَرِحًا؛ فإنَّ الخَصْلَةَ الأُولى مِنَ التَّقْصيرِ، والثّانيةَ مِنَ التَّكْديرِ؛ وكُونِي أَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ إِعْظامًا، يَكُنْ أَشَدَّ ما يَكُونُ لَكِ إِكْرامًا، وأَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ مُوافَقَةً، يَكُنْ أَطْوَلَ ما تَكُونِينَ لَهُ مُرافَقَةً؛ واعْلَمِي أَنَّكِ لا تَصِلِينَ إِلى ما تُحِبِّينَ حتّى تُؤْثِرِي رِضاهُ عَلى رِضاكِ، وهَواهُ عَلى هَواكِ، فِيما أَحْبَبْتِ وكَرِهْتِ؛ واللهُ يَخِيْرُ لَكِ!»، فحُمِلَتْ إليه، فعَظُمَ مَوْقِعُها منه، ووَلَدَتْ لَهُ مِنَ المُلُوكِ سَبْعَةً.

وأوصى أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ التَّمِيمِيُّ بَنِيهِ، فقال:

«يا بَنِيَّ! لا يَغْلِبَنَّكُمْ جَمالُ النِّساءِ عَنْ صَراحَةِ النَّسَبِ، فإنَّ المَناكِحَ الكَرِيمَةَ مَدْرَجَةٌ لِلشَّرَفِ».

ب- ومِنْ **وصايا المُلوكِ إلى أَبْنائِهِمْ** وَصِيَّةُ المُنْذِرِ بنِ المُنْذِرِ بنِ ماءِ السّماءِ إلى ابنِهِ النّعمانِ، فقد دعاهُ وهو غلامٌ شابٌّ فقال:

«يا بُنَيّ! إنَّ لي فيكَ رَأْيًا دُونَ غَيْرِكَ مِنْ وَلَدِي، فإنِّي آمُرُكَ بما أَمَرَنِي بِهِ والِدِي، وأَنْهاكَ عَمّا نَهانِي عَنْه:

آمُرُكَ بالذُّلِّ في عِرْضِك، وذلكَ أَنْ تَكُونَ ذَلُولًا في المَعْرُوف، وعلَيْكَ الانْخِداعُ في مالِكَ.

وأُحِبُّ لكَ خَلْوَةَ اللَّيْلِ وطُولَ السَّمَرِ؛ وأَكْرَهُ لكَ إِخْلافَ الصَّديقِ واطِّرافَ المَعْرِفَةِ.

وأَنْهاكَ عَنْ مُلاحاةِ الحُكَماءِ، ومُزاحِ السُّفَهاءِ.

إِنَّ لكَ عَقْلًا وجَمالًا ولِسانًا؛ فاكْتَسِ مِنْ ثَناءِ النّاسِ ما يُؤَيِّدُ جَمالَكَ، ودَعِ الكَلامَ وأَنْتَ عَلَيْهِ قادِرٌ، ولْيَكُنْ لكَ مِنْ عَقْلِكَ خَبِيْءٌ تَدَّخِرُهُ أَبَدًا لِيَوْمِ حاجَتِك».

ج- وثَمَّةَ **وصايا** كان يُدْلِي بها **الآباءُ إلى أبنائِهم حين يَبْلُغونَ مِنَ العُمْرِ مَبْلَغًا يَتَوَقَّعُونَ فيهِ المَوْتَ بينَ لَيْلَةٍ وضُحاها**، فيشعُرون بأنَّ تَجْرِبَتَهم صارَتْ حَقًّا لأبنائِهم وعليهم أَنْ يُؤَدُّوهُ إليهم؛ فمِنْ ذلك أنَّ الحارِثَ بنَ كَعْبٍ – وقِيلَ: مالِكَ بنَ المُنْذِرِ البَجَلِيَّ، وكانَ عَلى دِينِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ - جَمَعَ بَنِيهِ فذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ أَخْلاقِهِ، ثُمَّ أَوْصاهُمْ، فقال في وَصِيَّتِه:

«... **يا بَنِيَّ! كونوا جميعًا ولا تَفَرَّقُوا فتكُونُوا شِيَعًا، وإِنَّ مَوْتًا في عِزٍّ، خَيْرٌ مِنْ حياةٍ في ذُلٍّ وعَجْزٍ؛ وكلُّ ما هُوَ كائِنٌ كائِن، وكُلُّ جَمْعٍ إِلى تَبايُن.**

والدَّهْرُ صَرْفانِ: فصَرْفُ بَلاءٍ، وصَرْفُ رَخاءٍ، واليَوْمُ يَوْمانِ: فيَوْمُ حَبْرَةٍ، ويَوْمُ عَبْرَةٍ؛ والنَّاسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ مَعَكَ، ورَجُلٌ عَلَيْكَ.

زَوِّجُوا النِّساءَ مِنَ الأَكْفاءِ، وَلْيَسْتَعْمِلْنَ في طِيْبِهِنَّ الماءَ، وإِيّاكُمْ والحَمْقاءَ، فإِنَّ ولَدَها إلى أَفَنٍ ما يَكُونُ.

إِنَّهُ لا راحَةَ لِقاطِعِ القَرابَةِ؛ وإِذا اخْتَلَفَ القَوْمُ أَمْكَنُوا عَدُوَّهُمْ، وآفَةُ العَدَدِ اخْتِلافُ الكَلِمَةِ.

والتَّفَضُّلُ بالحَسَنَةِ يَقِي السَّيِّئَةَ، والمُكافَأَةُ بالسَّيِّئَةِ الدُّخُولُ فيها، والعَمَلُ بالسُّوءِ يُزِيلُ النَّعْماءَ، وقَطِيعَةُ الرَّحِمِ تُورِثُ الهَمَّ، وانْتِهاكُ الحُرْمَةِ يُزِيلُ النِّعْمَةَ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ يُعْقِبُ النَّكَدَ، ويَمْحَقُ العَدَدَ، ويُخْرِبُ البَلَدَ؛ والنَّصِيحَةُ تَجُرُّ الفَضِيحَةَ، والحِقْدُ يَمْنَعُ الرِّفْدَ، ولُزُومُ الخَطِيَّةِ يُعْقِبُ البَلِيَّةَ، وسُوءُ الرِّعَةِ يَقْطَعُ أَسْبابَ المَنْفَعَةِ، والضَّغائِنُ تَدْعُو إلى التَّبايُنِ.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ[1]:

أَكَلْتُ شَبابِي فَأَفْنَيْتُهُ ... وأَنْضَيْتُ بَعْدَ دُهُورٍ دُهُورَا

ثَلاثَةُ أَهْلِينَ صاحَبْتُهُمْ ... فَبادُوا وأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرَا

قَلِيلَ الطَّعامِ حَسِيرَ القِيَا ... مِ قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ خَطْوِي قَصِيرَا».

د- وهناك **وصايا** تركَها مجموعةٌ مِنَ **السّادة لعشائرِهِمْ** عامّةً، فمن ذلك قولُ هُبَيْرَةَ بنِ صَخْرٍ الكلبيّ:

---

(١) الأَفَنُ: الفَسادُ وضَعْفُ الرَّأْي.

«يا بَنيَّ ويا عَشِيرَتَاه! أُوْصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ والصَّبْرِ على المَضَضِ، ففِيهِ الفَوْزُ، لا فَوْزُ القِسِيِّ.

حافِظُوا على الحُرَمِ، فإنَّ الهَلاكَ في الغَفْلَةِ عنها.

والفَشَلُ في التّخاذُلِ؛ غِيْظُوا العَدُوَّ بإِظْهارِ السُّرورِ، وإِبْداعِ الأُمُورِ.

واذْكُرُوا المَجامِعَ والمَواسِمَ يَأْمَنْ سِرْبُكُمْ، فإنَّ المُحافَظَةَ أَمْنٌ.

وإنّما المُعَسْكَرُ لِمَنْ صَبَرَ.

ولْيُحَيِّكُمْ ربُّكُمْ!».

هـ - وهنالِكَ وصايا وجَّهَها حكيمٌ مِنَ الحكماء إلى قومٍ استشارُوه، منها ما كَتَبَ بِهِ أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ في رسالةٍ إلى جُهَيْنَةَ ومُزَيْنَةَ وأَسْلَمَ وخُزَاعَةَ، فقال:

«لا تَفَرَّقُوا في القَبائِلِ، فإنَّ الغَرِيبَ بِكُلِّ مَكانٍ مَظْلُومٌ؛ وإيّاكُمْ والوَشائِظَ، فإنَّ الذِّلَّةَ معَ القِلَّةِ.

إنَّ العارِيَّةَ لَوْ سُئِلَتْ: أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟ لَقالَتْ: أَبْغِي أَهْلِي ذَمًّا.

مَنْ يَتَتَبَّعْ كُلَّ عَوْرَةٍ يَجِدْها.

والرَّسُولُ مُبلِّغٌ غَيْرُ مَلُومٍ، ...

أَشْرافُ القَوْمِ كالـمُخِّ مِنَ الدَّابَّةِ، فإِنَّما تَنُوءُ الدَّابَّةُ بِمُخِّها، ...

والدَّالُّ على الـخَيْرِ كفاعِلِه.

والْـجَزَاءُ بِالْـجَزَاءِ، والبَادِئُ أَظْلَمُ.

والشَّرُّ يَبْدَؤُهُ صِغارُه».

٣- الظَّواهِرُ الفَنِّيَّةُ في الوَصايا الجاهليّة:

إنّ تدبُّرَ الوصايا السّالفةِ يَكْشِفُ عنِ الـملامح العامَّةِ لوصايا الجاهليّين، في أشكالِهَا ومعانيها؛ فيُلْحَظُ أنّها **تتّسم بالإيجازِ والقِصَرِ في الغالب**، وهُوَ أمرٌ مُتَوقَّعٌ، لأنّ الـمُوصِي يريد لوصِيَّتِه أن تُحْفَظَ، بِمَعْنَى أنْ تُراعَى وتُطَبَّقَ ولا تُضَيَّعَ، وأَنْ يُحْفَظَ نَصُّها، وقد صَرَّح كثيرٌ مِنَ الـمُوصِينَ بهذا، فقال زُرارَةُ بنُ عُدُسٍ التّميمِيُّ وهو يُمَهِّدُ لوصيّتِه: «**خُذُوا مِنْ أَدَبِي واثْبُتُوا عِنْدَ أَمْرِي، واحْفَظُوا وَصِيَّتِي**»، وقال عَوْفُ بنُ كِنَانَةَ الكَلْبِيّ: «**يا**

بَنِيَّ! احْفَظُوا وَصِيَّتِي، فإنّها أَنْصَحُ الجِبِلَّةِ لَكُمْ، وإِنْ أَنْتُمْ حَفِظْتُمُوها سُدْتُمْ قَوْمَكُمْ بَعْدِي».

وممّا يُلْحَظُ أنّ **السَّـجْعَ في وصـاياهم أقـلُّ منه في خُطَـبِهم**، ذلـكَ أَنَّ عددًا كبيرًا منها كانَ خاليًا من السَّجْعِ إلّا ما جاء اتِّفاقًا؛ ولكنَّ فيهـا وصـايا اطَّرَدَ فيها السَّجْعُ كوصيّةِ أُمَامَةَ لابنَتِها، وكأنَّها أَرادَتْهَا وصيَّةً مُزَيَّنَةً كما تُزَيَّن العَرُوس؛ وثمّة وصايا يأتي فيهـا السَّـجْعُ مَقْصُـودًا ولكِـنْ مـن غَـيْرِ اطِّـراد، وبعضُ السَّجْعِ كانَ يأْتِي داخِلِيًّا في العبارةِ الواحدة، مثل: «الذِّلّة معَ القِلَّـة» و«الـمُعَسْكَرُ لِمَـنْ صَـبَر»؛ ومـن فوائِـدِ السَّـجْعِ أَنَّـهُ أَعـانَ عـلى حِفْـظِ تلـك الوصايا.

وجـاءَتِ **الوصـايا المسـجوعَةُ متوازنَـةَ العبـاراتِ** في الغالِـب؛ وأمَّـا **الشِّعْرُ فقَلَّما اقْتَرَنَ بوصاياهم المنثُورَة**.

وهذه الظّواهرُ في شَكْلِ وصـاياهُمْ تَعْنِي أنَّ مِـنْهُم مَـنْ كـان يتعمَّـدُ التّنميقَ والصَّنْعَة اللّفظيّة، مُعْتَمِدًا على الفَنِّ للتَّأْثِيرِ فِيمَنْ يُلْقِي إليهِ بِوَصِيَّتِه.

وبالنَّظَرِ إلى معاني هذه الوصايا يُلْحَظُ في أسلوبِها **كَثْرَةَ اعتمادِها على صِيْغَتَيِ الأمرِ والنَّهْي** مِن أساليبِ الإنشاء، وهما الصّيغتانِ الـمناسبتانِ لهـذا النّوع مِنَ الأدب؛ لأنّ الـمُوصي إنّما يوجِّـه الـمُوصَى، فيـأمرُهُ بـما فيـه خَـيْرُه

ورَشادُه، ويَنْهَاهُ عمّا فيه ضُرُّهُ وفَسادُه؛ في حينَ كانَتِ الخُطْبَةُ تتميّزُ بتنوُّعِ أساليبِ الإنشاء فيها، مِن استفهامٍ ونداءٍ وتعجُّبٍ وتَمَنٍّ وأمرٍ ونهيٍ.

وممّا يُلْحَظُ أيضًا **قِلَّةُ اعتمادِ هذه الوصايا على الصُّوَرِ البيانيَّةِ**، من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ، وإن كنّا لا نعدَم أمثلةً لذلك، كقول عَمْرِو بنِ الغَوْث بنِ طيِّئ: «**فارْعَوْا مَرْعَى الضَّبِّ الأعْوَر، يَرَى جُحْرَهُ ويَعْرِفُ قَدْرَه؛ ولا تَكُونُوا كالْجَراد، يَأْكُلُ ما وَجَدَ، ويَأْكُلُهُ ما وَجَدَه؛ وإيَّاكُمْ والبَغْيَ، فإنَّ اللهَ إذا أَرادَ هَلاكَ النَّمْلَةِ جَعَلَ لَها جَنَاحَيْنِ**»، وكقولِ صَعْبِ بنِ سَعْدِ العَشِيرَةِ: «**يا بَنِيّ! أَوْسِعُوا الحُبَا، وحُلُّوا الرُّبا**»، فكَنَى عَنْ عِظَمِ الهِمَّة بسَعَةِ الحُبا، وعَنِ الأَمْرِ بإكرامِ الضّيفِ بالحُلولِ بالرَّبَواتِ لإيقادِ النّار.

وبعضُ هذه الوصايا **قد يَسْبِقُها كلامٌ يُمَهِّدُ بهِ المُوصِي لِوَصِيَّتِه**، فيُظْهِرُ شدّةَ حَدَبِهِ وحُبِّه لأبنائِهِ وقومِه، وحِرْصَهُ على ما فيه صَلاحُهم، كما في وَصِيَّةِ أُمامَةَ ووَصِيَّةِ المُنْذِرِ لِابنِهِ النُّعمان.

وممّا يميّزُ هذه الوصايا عامّةً **وضوحُ العِبارةِ واللَّفْظ**، فهذا يساعدُ على بلوغِ الهدف مِنَ الوصيّة، وهي تُشْبِهُ الخُطْبَةَ في ذلك، وتُخالِفُ سَجْعَ الكُهّان، لأنّ هدفَ الوصيّةِ والخُطْبَةِ الوَعْظُ والاعتبارُ والنُّصْح، وهدفَ سَجْعِ الكُهّانِ -في الغالبِ- التّهويلُ والتّهويم، فكانُوا يأتُونَ بما يجعلُ عباراتِهم غامضةً، ولذلك كانت أقْوالُهُمْ أقلَّ ما وصلَ إلينا من النّثر الجاهليّ.

وهذه الوصايا تتميّزُ **بدقّةِ المعنى وإحكامِهِ وتكثِيْفِهِ في ألفاظٍ قليلة**، فكانت هذه المزيّةُ إلى جانبِ وضوحِ ألفاظِها ومعانيها سببًا في ذهابِ عددٍ كبيرٍ من عباراتِهِمْ أمثالًا كما ذهبَتْ بَعْضُ عباراتِ الخُطباء.

رابعًا: أمثال الجاهليّين وحِكَمُهم

١ - تعريف:

المَثَلُ: قولٌ سائرٌ، قِيْلَ في مَقامٍ ما، بلفظٍ مُوجَزٍ، أو مَعْنًى دقيقٍ صائبٍ، أو تشبيهٍ حَسَنٍ، أو كنايةٍ لطيفة، فدار بين النّاسِ واستعملوهُ لِما يُشْبِهُ المَقامَ الَّذي قيلَ فيه أوّلَ ما قيل؛ وهُوَ مأخوذٌ مِنَ المثُولِ بِمَعْنَى القيام، فكأنّهم أقاموا لَفْظَ (المثَلِ) مَقامَ غيرِه، لِتَوافُقِ الحالينِ في المعنى.

والحِكْمَةُ: قولٌ بليغٌ مُوْجَزٌ، أصاب صاحِبُهُ الحقيقةَ فيما رَمَى إليه؛ وتَرْجِعُ الحكمةُ في معناها إلى العِلْمِ والإتقانِ والرَّدِّ عَنِ الْجَهْلِ والفَساد.

والفَرْقُ بين الحكمةِ والمَثَلِ أنّ المثَلَ ما شاعَ بين العامّةِ والخاصّة، ويُطْلَقُ على الحالِ وما شابَهَها، في حين لا تقع الحكمة إلّا على معنًى مِنَ المعاني في جانبٍ من جوانبِ الحياة، وتدور بين خاصّة النّاس دونَ عامّتهم، فإذا شاعَتْ وأشبهتِ المثَلَ في سَيْرُورتها سُمِّيَتْ مَثَلًا؛ ولذلك جمعت كتبُ الأمثالِ كثيرًا من الحِكَم، حتّى إنّ بعضَ العلماء عَرَّفَ الأمثالَ بأنّها الحِكَم؛ قال أبو عُبَيْدٍ القاسِمُ بنُ سَلّامٍ: «هذا كِتابُ الأمثالِ، وهي حِكْمَةُ العرب في الجاهليّة والإسلام، وبها كانت تُعارِضُ كلامَها، فتبلُغُ بها ما حاولَتْ مِن حاجاتِها في المَنْطِقِ بكنايةٍ غَيْرِ تَصْريحٍ، ...».

وإذا كانتِ الوصايا والخُطَبُ وسَجْعُ الكُهّانِ مُعَرَّضةً لاختلافِ الرّواية -وإنْ كانَ ذلك الاختلافُ غَيْرَ واسِعٍ- فإنّ الأمثالَ والحِكَمَ قلَّما وقع فيها ذلك؛ لأنّ مِن عادةِ العَرَبِ أَنْ يُجْرُوا الأمثالَ والحِكَمَ بألفاظِها من غَيْرِ أَنْ يُغَيِّروا صِيغَتَها، ولأنّها قصيرةٌ مُوجَزَةٌ، دائرةٌ بينَ النّاس، حتّى إنّ كثيرًا مِن النّاس يستعملونها على هَيْئَتِها وهم لا يعرفون سببَ قَوْلِها ولا خَبَرَه.

٢- التّأليفُ في الأمثال:

جاءَ الإسلامُ وعلى ألسنةِ العَرَب ما لا يكادُ يُحْصَى- مِنَ الأمثال والحِكَمِ الموروثة عن الجاهليّين، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتّى بدأت الجهود لتصنيفِ تلكَ الحِكَم والأمثال في كُتُبٍ مُفْرَدَة؛ بَلْ إنّ **مِنَ الحِكَمِ ما كانَ مُدَوَّنًا قَبْلَ الإسلام**، ففي خبرِ سُوَيْدِ بنِ الصّامِتِ الأَوْسِيّ أنّه قَدِمَ مكّةَ حاجًّا أو مُعْتَمِرًا، فدعاه النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ إلى الإسلام، فقال سُوَيْدٌ: «لعلّ الَّذي مَعَكَ مِثْلُ الَّذي معي، فقال: وما الَّذي معك؟ قال: مَجَلَّةُ لُقْمانَ، يَعْنِي حِكْمَةَ لقمان»، والمَجَلَّةُ: الكِتاب، مُشْتَقَّة مِنْ (جَلَّ) إذا عَظُمَ، ولذلك قِيلَ: لا يُطْلَقُ لفظُ (المَجَلّة) على الكِتابِ إلّا أنْ يَكُونَ كِتابَ حِكْمَةٍ، لجَلالِ الحِكْمَةِ وعِظَمِ شَأْنِها، ورُوِيَ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنّه قال: «قرأْتُ مِن حِكْمَةِ لُقْمانَ أَرْجَحَ مِن عَشَرَةِ آلافِ بابٍ».

وفي **القرنِ الأوّلِ** أَلّفَ كلٌّ مِنْ عُبَيْدِ بنِ شَرْيَـة الـجُرْهُميّ (٦٧ هـ)، وعِلاقةِ بنِ كِرْشِمٍ –ويُقال: كَرْسَم– الكِلابيّ (كان حيًّا قبل سنة ٦٤ هـ)، وصُحارِ بنِ عَيّاشٍ العبديّ (٤٠ هـ) كتابًا في الأمثال، وقد بقيَتْ هذه الكتبُ بين أيدي النّاس حتّى نقَلَ عنها أبو عُبَيْدٍ البَكْريُّ الأندلسيّ (٤٨٧ هـ) في كتابه (فَصْل المَقال)، وذكر ابنُ النّديم (توفِّيَ بعد ٣٧٧ هـ) أنّه رأى كتاب عُبَيْدٍ في نحو خمسين ورقة.

وفي **القرنِ الثّاني** أَلَّفَ في الأمثالِ كلٌّ مِن الشَّرْقيِّ بنِ القُطاميّ الكلبيّ، والمُفَضَّلِ الضَّبِّيّ، وأبي عَمْرٍو الشّيبانيّ، وأبي عُبيدة، والأصمعيِّ، وأبي زيدٍ الأنصاريّ، وأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلاّم، وغيرهم.

ثمّ تتابعتِ المؤلَّفاتُ بعدَ ذلك حتّى بلغَتْ كتُبُ الأمثال الّتي اعتمد عليها أبو الفضل أحمد بن محمّد المَيْدانيّ أكثرَ من خمسين كتابًا؛ ومِنْ أَجْمَعِ كتبِ الأمثالِ الّتي وصلت إلينا كتاب (جَمْهَرَة الأمثال) لأبي هلالٍ العسكريّ، و(مَجْمَع الأمثال) للميدانيّ، و(المُسْتَقْصَى في الأمثال) للزّمخشريّ؛ وقد اعتمدت هذه الكتب الجامعةُ على ترتيبِ الأمثال ترتيبًا معجميًّا، فتداخَلَتْ أمثالُ الجاهليّةِ وما بعدها، فصار «مِنَ الصّعبِ تمييزُ جاهليِّها مِنْ إسلامِيِّها في كثيرٍ مِن الأحيان»، إلّا أَنْ يكونَ في قصّة المَثَلِ ما يَدُلُّ على جاهليّتِه مِن حوادثِ الجاهليّة أو أسماءِ أعلامها، أو ما يخصّهم مِن مُعْتَقَداتٍ وعادات.

٣- أشهرُ حُكَماء الجاهليّة:

إنّ أسماءَ كثيرٍ مِن قائلي الأمثالِ والحِكَم مَجْهُولَةٌ، إمّا لِقِدَمِ المثَلِ، وإمّا لأنّ قائلَه مِن عامّة العرب، غَيْرَ أنّ كثيرًا مِن الحِكَمِ والأمثالِ الجاهليّةِ نطَقَ بها أُناسٌ عُرِفوا بالحكمةِ وسِعَةِ التّجربةِ في قبائِلِهم، فكانوا يلجؤونَ إليهم فيما ينشأُ بينهم مِن خصامٍ ونِزاع، فكانوا حُكّامَهُم القُضاةَ بَيْنَهُم، إلى جانبِ أَنَّهُم حُكَماؤُهم؛ فَعُدَّ مِن قُدماءِ حُكَمائهم لُقْمانُ عادٍ فيما كانَ مُتَداوَلًا بَيْنَ الْجاهِلِيِّينَ مِنْ قَصَصٍ حَوْلَ عادٍ، وكان فيهم بَعْدُ حُكَماءُ وحُكّامٌ، **ففي اليَمَنِ** مَثَلًا: الأَفْعَى الْجُرْهُمِيُّ وعَمْرُو بنُ حُمَمَةَ الدَّوْسِيُّ، **وفي تَمِيمٍ**: أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ وحاجِبُ بنُ زُرَارَةَ والأَقْرَعُ بنُ حابِسٍ وضَمْرَةُ بنُ ضَمْرَةَ ورَبِيعَةُ بنُ مُخاشِنٍ، **وفي قَيْسِ عَيْلانَ**: عامرُ بنُ الظَّرِبِ العَدْوانيّ وغَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ الثّقفيُّ، **وفي قُرَيْشٍ**: عبدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ وابنُهُ أَبو طالِبٍ والعاصُ بنُ وائلٍ، **وفي بَنِي أَسَدٍ**: رَبِيعَةُ بنُ حُذارٍ وابنُهُ سُوَيْدٌ؛ **وفي كِنانَةَ**: يَعْمُرُ الشَّدّاخُ وصَفْوانُ بنُ أُمَيّة؛ **وكانت فيهم حكيماتٌ حاكِماتٌ** مشهوراتٌ، منهنّ: صُحْر بنتُ لُقمانِ عادٍ، وهند بنتُ الخُسِّ، وجُمْعَةُ بنتُ حابِس، وابنةُ عامرِ بنِ الظَّرِبِ.

٤ - أمثلة من أمثال الجاهليّين وحِكَمِهم:

مِمّا رُوِيَ عَن أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيٍّ قَوْلُهُ لِبَنِيه: «**... عَلَيْكُمْ بالبِرِّ فإنَّهُ يُنْمِي العَدَد، وكُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فإنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْه؛ إنَّ قَوْلَ الحَقِّ لَمْ يَدَعْ لي صَدِيقًا...؛ لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَك؛ وَيْلٌ لِعالِمِ أَمْرٍ مِنْ جاهِلِهِ؛ الوَحْشَةُ ذَهابُ الأَعْلامِ؛ يَتَشابَهُ الأَمْرُ إذا أَقْبَلَ، فإذا أَدْبَرَ عَرَفَهُ الأَحْمَقُ والكَيِّس؛ البَطَرُ عِنْدَ الرَّخاءِ حُمْقٌ...**»، أَرادَ بالأعلامِ العُظَماءَ، وقولُه: « **... رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْل، والحُرُّ حُرٌّ وإنْ مَسَّهُ الضُّرُّ...؛ حافِظْ على الصّديقِ ولَوْ في الحَريق؛ ولَيْسَ مِنَ العَدْلِ سُرْعَةُ العَذْل**».

ومِمّا رُوِيَ لِعامر بنِ الظَّرِبِ قولُهُ لِقَوْمِهِ وقَدِ اجْتَمَعُوا إلَيْهِ حينَ كَبِرَ وخافُوا مَوْتَهُ، وطَلَبُوا إلَيْهِ الوَصيَّةَ[1]: «**مَنْ جَمَعَ بينَ الحقِّ والباطِلِ لَمْ يَجْتَمِعا لَه، وكانَ الباطِلُ أَوْلَى بِه، وإنَّ الحقَّ لَمْ يَزَلْ يَنْفِرْ مِنَ الباطِلِ، ولَمْ يَزَلِ الباطِلُ يَنْفِرُ مِنَ الحقِّ؛ لا تَفْرَحُوا بالعِلْق، ولا تَشْمَتُوا بالزَّلَّة؛ وبِكُلِّ عَيْشٍ يَعِيشُ الفَقِيرُ؛ ومَنْ يُرِ يَوْمًا يُرَ بِه؛ وأَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ قَدْرَه، قَبْلَ الرِّماءِ تُمْلَأُ الكَنائِنُ، ...**».

---

(١) العِلْقُ: الشَّيْءُ النَّفِيسُ. والرِّماءُ: المُراماةُ بِالسِّهام. والكَنائِنُ: جَمْعُ الكِنانَةِ، وهِيَ جَعْبَةُ السِّهام.

ومِن أمثالِهم: « (**إِنَّ الْجَبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ**)، الحَتْفُ: الهَلاكُ...؛ قالَ ابنُ الكَلْبيّ: أَوَّلُ مَنْ قالَهُ عَمْرُو بنُ مَامَةَ[1] في شِعْرٍ لَه، وكانَتْ (مُرادٌ) قَتَلَتْهُ، فقالَ هذا الشّعرَ عندَ ذلك، وهُوَ قَوْلُه:

لَقَدْ حَسَوْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

والثَّوْرُ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ

يُضْرَبُ في قِلَّةِ نَفْعِ الحَذَرِ مِنَ القَدَر...».

ومِنْها قَوْلُهم: « (**أَتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاهُ**)، كانَ المُفَضَّلُ [الضَّبِّيُّ] يُخْبِرُ بقائلِ هذا المَثَلِ فقال: إنّهُ الحارِثُ بنُ جَبَلَةَ الغَسّانيّ، قالَهُ لِلْحارِثِ بنِ عَيِّفٍ العَبْدِيِّ، وكانَ ابنُ العَيِّفِ قد هَجاه، فلمّا غَزا الحارِثُ بنُ جَبَلَةَ المُنْذِرَ بنَ ماءِ السّماءِ كان ابنُ العَيِّفِ مَعَه، فَقُتِلَ المُنْذِرُ، وتفرَّقَتْ جُموعُه، وأُسِرَ ابنُ العَيِّف فأُتِيَ به الحارثُ بنُ جَبَلَة، فعندها قال: (أَتَتْكَ بِحائنٍ رِجْلاهُ)، يَعْنِي مَسِيرَهُ معَ المُنْذِرِ...؛ وقِيلَ أَوّلُ مَنْ قالَهُ عَبِيدُ بنُ الأَبْرَصِ حينَ عَرَضَ للنُّعْمانِ بن المُنْذِرِ في يَوْمِ بُؤْسِهِ، وكان قَصَدَهُ لِيَمْدَحَهُ، ولم يَعْرِفْ أَنَّهُ يَوْمُ بُؤْسِهِ، فلمّا انتهى إليْهِ قالَ لَهُ النُّعمان: ما جاءَ بِكَ يا عَبِيدُ؟ قال: أَتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاهُ...».

ومنها قولُهم: «**أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ**»، وأَوَّلُ مَنْ قالَهُ النّابغةُ حينَ قال:

---

(١) أَخُو عَمْرِو بنِ هِنْد مَلِكِ الحِيرةِ.

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجالِ الْمُهَذَّبُ

ومِن أمثالِهمُ المَشهورة: «**مَنْ أَجْدَبَ انْتَجَعَ**»، و«**ومَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ**»، و«**الذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إِبِلٌ**»، و«**رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا**»، و«**أَسْمَعُ جَعْجَعَةً وَلا أَرَى طِحْنًا**»، و«**إِنَّ البُغَاثَ بِأَرْضِنا تَسْتَنْسِرُ**»، و«**أَعْطِ القَوْسَ بارِيْها**»، و«**عِنْدَ (جُهَيْنَةَ) الخَبَرُ اليَقِينُ**»، و«**تَسْمَعَ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَراهُ**»، و«**الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ**»، و«**جَزاءُ (سِنِمّارَ)**»، و«**مَواعِيدُ (عُرْقُوبٍ)**»، و«**مُجِيرُ (أُمِّ عامِرٍ)**».

٥- الظَّواهِرُ الفنّيّةُ للأمثالِ والحِكَمِ الجاهليّة:

يدُلُّ النّظرُ في الأمثالِ والحِكَمِ السَّابِقَةِ وفي غيرها على مجموعةٍ مِنَ الظّواهر الفنّيّةِ لحِكَم الجاهليّينَ وأمثالِهم، شَكْلًا ومَضْمُونًا.

أ- ظَواهِرُ في الشَّكْل:

يُلْحَظُ أَنّها **تتميَّزُ بالقِصَرِ والإيجاز**، وأنّ أغلَبَها يتكوّن مِن جُمْلَةٍ واحِدَةٍ لا غيرَ، وإِنْ كان ثمَّةَ أمثالٌ تتجاوزُ ذلك، كقولِهِمْ: « **العَبْدُ يُقْرَعُ بالعَصا، والحُرُّ تَكْفِيهِ الإِشارَة**»، وقولِهم: « **إِنَّ الحَمَاةَ أُوْلِعَتْ بالكَنَّةِ، وأُوْلِعَتْ كَنَّتُهَا بالظَّنَّة**».

ويُلْحَظُ أنّ قِسْمًا كبيرًا منها تتوافرُ له **عناصِرُ مُوسيقيَّةٌ مِنْ وَزْنٍ أَوْ سَجْعٍ أَوْ جِنَاسٍ**، ويغلِبُ على الأمثالِ المَوْزُونةِ أَنْ تَكُونَ أَبْعاضَ أَبْياتٍ من الشّعر، كقولِهِمْ: «**أَعْطِ القَوْسَ بارِيْها**»، فإنّ أصلَه قولُ الشّاعر:

يا بارِيَ القَوْسِ بَرْيًا لَسْتَ تُحْسِنُهَا ... لا تُفْسِدَنْها، وأَعْطِ القَوْسَ بارِيْهَا

وقَوْلِهِمْ: «**قَدْ قِيلَ ذَلِكَ إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا**»، أَصْلُهُ قَوْلُ النُّعْمانِ بنِ المُنْذِرِ للرَّبِيعِ بنِ زِيادٍ العَبْسِيّ مِنْ أَبياتٍ:

قَدْ قِيلَ ذلِكَ إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا ... فَما اعْتِذارُكَ مِنْ شَيْءٍ إِذا قِيْلا

وقولِهِمْ: «**لِأَمْرٍ ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ**»، و«**لَمّا اسْتَدَّ ساعِدُهُ رَماني**».

ومِمّا جاء مَسْجُوعًا أو مُجانَسًا قولُهم: «**اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْل**»، و«**لِكُلِّ ساقِطَةٍ لَاقِطَةٌ**»، و«**لَجَّ فَحَجَّ**»، و«**لَوْ قُلْتُ: تَمْرَة، لَقالَ: جَمْرَة**»، و«**لَا فِي العِيرِ، ولَا فِي النَّفِيرِ**»، وقولُهم: «**لَأَشْأَنَنَّ شَأْنَهُمْ**» أَيْ: لَأُفْسِدَنَّهُ، وشَأَنَهُ: إذا أَصابَ شُؤُونَ رَأْسِهِ، وهي قِطَعُ الْجُمْجُمة، و« **لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالٌ**».

ومِمّا يُلْحَظُ في الأمثالِ أَيْضًا **مُخالَفَةُ القِياسِ في النَّحْوِ والصَّرْفِ في بَعْضِها**، وهو نادِرٌ؛ إِذِ اسْتَجازُوا فيها مِنَ الحَذْفِ وغَيْرِهِ مِمّا يَقَعُ في ضَرائِرِ الشّعرِ مالَم يَسْتَجِيزُوهُ في سائِرِ كَلامِهِم؛ كقولِهم: «**أَجْناؤُها أَبْناؤُها**»، فجَمَعُوا (الجاني) على (أجناء)، و(الباني) على (أبناء)، وإنّما جَمْعُهُما (جُناةٌ) و(بُناةٌ)، ولكنَّ قائلَ المَثَلِ هكذا نَطَقَ به فحَفِظُوهُ بِلَفْظِه؛ وكقولِهِمْ: «**أَعْطِ القَوْسَ بارِيْهَا**» بسُكونِ الياءِ مِن (باريْها) لأنّها هكذا وردَتْ في الشّعرِ الَّذي

أُخِذَ مِنْهُ الـمَثَلُ؛ وقولِـهِمْ: «**خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ يَأْخُذَك**» فنصَبُوا (يأخُذَك) بـ(أنْ) مُضْمَرَةٍ؛ وقولِـهِمْ: «**تَسْمَعَ بالـمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ**» بِنَصْبِ (تَسْمَعَ) بـ(أَنْ) مُضْمَرَةٍ؛ وقَوْلِـهِمْ على لِسانِ الحَجَلَةِ تُخاطِبُ القَطَا فيما صاغُوه على لِسانِ الحَيوانِ مِن أمثالِـهم: «**قَطَا قَطا! بَيْضُكِ ثِنْتا، وبَيْضِي مِئَتا**» أَيْ: (ثِنْتَانِ) و(مِئَتانِ).

ومِـمّا سارَتْ علَيْهِ العربُ في الأمثالِ أَنّها **تُجْرِيها كما جاءَتْ ولا تُغَيِّرُها عن لفظها الأوّل**، كما في هذه الأمثالِ السّابقةِ الـمُخالِفَةِ للقياس، وكما في قولهم: «**الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ**» بكَسْرِ التّاء، يقولُونَهُ للمذكَّرِ والمؤنَّث، وللْمُفْرَدِ والمثَنَّى والجمع؛ وكما في قولهم: «**يَداكَ أَوْكَتا وفُوْكَ نَفَخ**» يقولونَهُ للمذكَّرِ والمؤنّث، وللمُفْرَدِ والمثنّى والجمع.

ب- ظواهِرُ في الـمَضْمون:

لاحَظَ النُّقّادُ مُنْذُ القَدِيمِ أنَّ **الأمثالَ حِينَ تُطْلَقُ إنّما يُرادُ بها تَشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أو يُرادُ الكِنايةُ بالـمَثَلِ عَنْ معنًى ما**، ولذلكَ قالَ الـمُبَرِّدُ فيما نقل عنه الميدانيّ: «المَثَلُ مأخوذٌ مِنَ المِثَالِ، وهُوَ قَوْلٌ سائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حالُ الثَّاني بالأَوَّلِ، والأَصْلُ فيهِ التَّشْبِيهُ»، وذكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ القاسِمُ بنُ سَلّامٍ أَنّه اجْتَمعَ للعَرَبِ في أمثالِها: «إيجازُ اللَّفْظِ، وإصابةُ المَعْنَى، وحُسْنُ التَّشْبِيهِ»، ووصفَها (إبراهيمُ النَّظّامُ) بأنّها نِهايةُ البَلاغَةِ، لِاشْتِمالِها على: «إيجازِ اللّفظ، وإصابةِ المعنى، وحُسْنِ التّشبيه، وجَودةِ الكِناية».

وهذا الـحُكْمُ النّقديّ واقعٌ على الـمَثَلِ حينَ يُتَمَثّلُ به، ولا يَخْرُجُ عن هذا الـحُكْمِ أَيُّ مَثَلٍ؛ وأمّا الأمثالُ والحِكَمُ نفسُها فإنّ منها ما لا يقعُ فيه تشبيهٌ ولا استعارةٌ ولا كنايةٌ، كقولهم: «**إِنْ لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلِبْ**»، و«**أَمْرَ مُبْكِياتِكِ لا أَمْرَ مُضْحِكاتِك**»، و«**إِذا ضَرَبْتَ فأَوْجِع، وإِذا زَجَرْتَ فأَسْمِعْ**».

ومنها ما يَعْتَمِدُ على التّصويرِ مِن تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ،كقولهم: «**تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْها**»، و«**كالـمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنّارِ**»، و«**مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ ظَلَمَ**»، و«**اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا**».

بل إنّ **مِن أمثالِهم ما اعتمدوا فيه على قِصَصٍ خَياليّةٍ أَجْرَوْها على ألسنةِ البهائم** كما فعَلَتِ الأُمَمُ الأُخرى، كقولِهِمْ -إذا كانَ مِمّا عَرَفُوهُ مِن الأَمثالِ قَبْلَ الإِسلام-: «**إِنّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ**»، قالَ الـمَيْدانِيّ: « يُرْوَى أَنَّ أَمِيرَ الـمُؤْمِنينَ عَلِيًّا رضيَ اللهُ تَعالى عنه قالَ: إِنَّما مَثَلي ومَثَلُ عُثْمانَ كَمَثَلِ أَثْوارٍ ثَلاثَةٍ كُنَّ في أَجَمَةٍ أَبْيَضَ وأَسْوَدَ وأَحْمَرَ، ومَعَهُنَّ فيها أَسَدٌ، فكانَ لا يَقْدِرُ مِنْهُنَّ عَلى شَيْءٍ لِاجْتِماعِهِنَّ عليهِ؛ فقالَ لِلثَّوْرِ الأَسْوَدِ والثَّوْرِ الأَحْمَرِ: لا يُدِلُّ عَلَيْنَا في أَجَمَتِنا إِلّا الثَّوْرُ الأَبْيَضُ، فإِنَّ لَوْنَهُ مَشْهُورٌ ولَوْنِي عَلى لَوْنِكُما، فلَوْ تَرَكْتُمانِي آكُلُهُ صَفَتْ لَنا الأَجَمَةُ؛ فقالا: دُونَكَ فَكُلْهُ! فأَكَلَهُ، ثُمَّ قالَ لِلْأَحْمَرِ: لَوْنِي عَلى لَوْنِكَ، فَدَعْنِي آكُلِ الأَسْوَدَ لِتَصْفُوَ لَنا الأَجَمَةُ؛ فقال: دُونَكَ فَكُلْهُ! فأَكَلَهُ، ثُمَّ قالَ لِلْأَحْمَرِ: إِنِّي آكِلُكَ لا مَحالَةَ! فقالَ: دَعْنِي أُنادِي ثَلاثًا؛ فقالَ: افْعَلْ! فنادَى: أَلا إِنِّي أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ؛ ثُمَّ

قالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ: أَلا إِنِّي هُنْتُ – ويُرْوَى: وَهَنْتُ – يَوْمَ قُتِلَ عُثْمانُ، يَرْفَعُ بِها صَوْتَهُ؛ يَضْرِبُهُ الرَّجُلُ يُرْزَأُ بِأَخِيهِ»؛ وقولُهُمْ: «**بَقِيَ أَشَدُّه**»، قال الـميدانيّ: «ويُرْوَى: (**بَقِيَ شَدُّهُ**)؛ قيل: كانَ مِنْ شَأْنِ هذا الـمَثَل أَنَّهُ كان في الزَّمانِ الأَوَّلِ هِرٌّ أَفْنَى الجِرْذَانَ وشَرَّدَها، فاجْتَمَعَ ما بَقِيَ منها فقالَتْ: هَلْ مِنْ حِيلَةٍ نَحْتَالُ بِها لِهذا الـهِرِّ لَعَلَّنا نَنْجُو منه؟ فاجتَمَعَ رأيُهَا عَلى أَنْ تُعَلِّقَ في رَقَبَتِهِ جُلْجُلًا إِذا تَحَرَّكَ لَها سَمِعْنَ صَوْتَ الـجُلْجُلِ فأَخَذْنَ حَذَرَهُنَّ؛ فَجِئْنَ بالـجُلْجُلِ، فقالَ بَعْضُهُنَّ: أَيُّنا يُعَلِّقُ الآنَ؟ فقالَ الآخَرُ: (بَقِيَ أَشَدُّهُ)، أَوْ قال: شَدُّهُ؛ يُضْرَبُ عندَ الأمرِ يَبْقَى أَصْعَبُه وأَهْوَلُه؛ وهذا ممّا تمثَّلَ بهِ العرَبُ عن أَلْسُنِ البَهائِم»؛ وقولُـهم: «**الـحَذَرُ قبلَ إرسالِ السَّهْمِ**» قالَ الـميدانيّ: « تَزْعُمُ العَرَبُ أنَّ الغُرابَ أرادَ ابنُهُ أَنْ يَطِيرَ، فرَأَى رَجُلًا قَدْ فَوَّقَ سَهْمًا لِيَرْمِيَهُ فَطارَ، فقالَ أَبُوهُ: اتَّئِدْ حتّى تَعْلَمَ ما يُريدُ الرَّجُلُ؛ فقالَ لَهُ: يا أَبَتِ! الحَذَرُ قَبْلَ إِرْسالِ السَّهْمِ»[1].

ولا يَخْفَى على النّاظر **أَثَرُ البيئةِ العربيّةِ في كثيرٍ مِن أمثالِـهم**، إذ يَظْهَرُ فيها أَثَرُ حياتِهم وبيئاتِهمُ الـمُختلفةِ وحيوانِها ونباتِها وما إلى ذلك، كما في قولهم: «**إنْ تَسْلَمِ الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر**»، والجِلَّةُ: الإبِلُ العظيمة، والنِّيْب: النّوقُ الـمُسِنَّة، و«**إنّكَ لَعالِمٌ بِمَنابِتِ القَصِيصِ**»، القَصِيصُ: شُجَيْرَةٌ تَنْبُتُ عِنْدَ الكَمْأَة، و«**أَنْ تَرِدَ الـماءَ بِماءٍ أَكْيَسُ**».

---

(١) فوَّقَ السَّهمَ: وَضَعَ فُوقَهُ في الوَتَرِ؛ والفُوقُ: مَوضِعُ الوَتَرِ مِنَ السَّهْمِ.

فهذا أَبْرَزُ ما يبدُو مِن ظواهِرَ فنّيَّةٍ في أمثالِ العَرَبِ وحِكَمِهِمُ الّتي جادَتْ بها قَرائحُهم فدارَتْ على ألسِنَتِهِمْ، لِيَكُونَ ذلكَ «أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ، وآنَقَ لِلسَّمْعِ، وأَوْسَعَ لِشُعُوبِ الحديثِ».

صفحات مختارة من كتاب

(شعرنا القديم والنّقد الجديد)

صفحات مختارة من كتاب

(شعرنا القديم والنّقد الجديد)

كان في النّيّةِ أنْ أُضمِّن هذا الكتاب أشياءَ ممّا كتبَه كلُّ من درَّس الأدب الجاهليّ في جامعة دمشق، ممّنْ لم أُدْرِكْهُم وممّنْ أدرَكْتُهم وشرُفْتُ بالتّلقِّي عنهم أو بمشاركتهم في تدريسِ هذا المُقرّر؛ ولكنّي وجدتُ الكتابَ قد طالَ، فاكتفَيْتُ باختيارِ هذهِ الصّفَحات من كتاب (شعرنا القديم والنّقد الجديد) لأستاذِنا الدّكتور وهب أحمد روميّة، وقد شَرُفْتُ بالتّلَقِّي عنه في دبلومِ الدّراساتِ العليا ثُمّ بالتّدريسِ معه ومع الأستاذ الدّكتور حسين جمعة وزُمَلاءَ آخَرين.

ويحملُ هذا الكتابُ رَقْمَ (٢٠٧) مِن منشُوراتِ سلسلةِ (عالمِ المعرفة) الشَّهريّة الّتي تَصْدُرُ عن المجلسِ الوطنيّ للثّقافة والفُنونِ والآدابِ في الكُوَيْتِ الشَّقيق، وكان صدورُه عام ستّةٍ وتسعين وتِسْعِ مئةٍ وألف للميلاد، والكتابُ قائِمٌ على محورَيْنِ اثْنيْن: قراءَةٍ ناقِدة للمنهجِ الأُسطوريّ في دراسةِ الشّعرِ الجاهليّ، ودراسةٍ جديدةٍ لهذا الشّعر تسعى إلى كَشْفِ رؤيةِ الذّاتِ الجاهليّةِ الشّاعرة لِنَفْسِها وللكونِ ومُشْكِلاتِه ونواميسِه؛ وجاءَ ذلكَ بأسلوبٍ أدبيٍّ بليغٍ عالٍ، بناءً على أنّ النّقدَ ينبغي أن يكونَ ضربًا من الإبداعِ على الإبداع، والبِناءِ على البِناء، بلغةٍ نقديّةٍ علميّةٍ رشيقةٍ

متوهِّجةٍ، بعيدةٍ عن الغموضِ والتّهويمِ والغَثاثةِ والبُرودةِ والتّعالي على القارئِ.

ولا غرْوَ، فهذا الكتابُ وَلِيدُ ما يزيدُ على أربعينَ سنةً من دراسةِ الأدبِ القديم وتذوُّقِهِ ونقدِهِ، فَضْلًا عن الاطّلاعِ الواسِعِ على مدارِسِ النّقدِ القديمِ والجديد؛ وكان الاختيارُ من الصَّفَحات (١٧٧ – ٢٠٠) من الفصلِ الثّالث الّذي جاء بعنوان (**رؤية الذّات في القصيدة العربيّة القديمة**)، وأعلمُ أنّ مستوى الحديثِ في هذهِ الصَّفَحاتِ أعلى مِن أنْ يُطالَبَ به الطّلّابُ وهم في أوّلِ مَدارِجِ العلم، ولكنّه ممّا ينبغي أن يطّلِعُوا عليه وعلى أمثالِه من الدّراساتِ الّتي تعمّقُ فهمَ الأدب الجاهليّ وتذَوُّقَهُ، وتكشِفُ ما فيه من مواطِنِ الجمالِ وأسرارِهِ وأدواتِه، وتحْمِلُهُم إلى مستوًى أعلى وأرقى في قادِمِ حياتِهم العلميّة إن شاء الله.